المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

الطبعة الثانية

جوستافو أدولفو بِكر

أشعار

ترجمة: ماهر البطوطي

2/670

أشعار

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٦٧٠/ ٢
- أشعار
-جوستافو أدولفو بِكِر
- ماهر البطوطى
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة
RIMAS
POR
GUSTAVO ADOLFO BECQUER

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

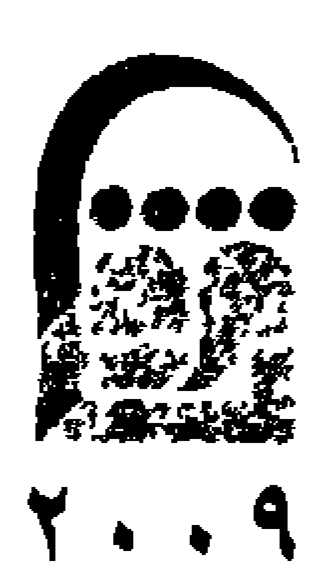
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554

أشعار

تأليف: جوستافو أدولفو بِكِر

ترجمة: ماهر البطوطى



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١١٠٣٢
الترقيم الدولى: 5 - 347 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مقدمة المترجم

دائما ما يعوض الشعر من يفقده من شموسه الغاربة ، بغض النظر عن الموطن والمكان ، فربة الشعر حريصة دائما على ألا يخلو عرشها ممن يهب حياته كلها لها ، ويسطر بمواهبه القريض والمعانى فى تخليدها . وهكذا لم تمض عدة سنوات على اختفاء نجوم الشعر الرومانسى فى إنجلترا ، إذ اختطفهم الموت جميعًا خلال أربع سنوات فى ظروف فاجعة وهم فى زهرة الشباب ، حتى ولد شاعر آخر فى طرف القارة الأوروبية الجنوبى الغربى كان مقدراً له أن يصبح إمام شعراء لغته ، وإن كانت حياته - مثل حياة رفاقه الإنجليز بايرون وشيللى وكيتس - شهابا التمع فترة قصيرة ثم هوى قبل الأوان . لم تزد حياة واحد من هؤلاء الشعراء على الثلاثين عامًا إلا ببضع سنوات ، وعاشوا جميعًا يتعبدون فى صومعة فنهم يستنبطون فيها نواتهم ورؤاهم الشخصية ، ويتبعون حياة يضرب فيها القلق والتطواف بسهم وافر .

أما من يقابل هؤلاء الشعراء فى إسبانيا فهو جوستافو أدولفو بِكِر الذى ولد فى مدينة إشبيلية فى فبراير ١٨٣٦ ، وقضى فيها طفولته وصباه . وهو شاعر لم تتعد حياته أربعة وثلاثين عاماً ، كتب فيها تسعين قصيدة ونيِّفًا طبعت بعد وفاته بعام واحد فى ديوان بعنوان « أشعار » ،

أصبح إنجيل الشعراء والمحبين والشباب منذ نشره حتى الآن . وقد مر كل شعراء اللغة الإسبانية الكبار على درب بِكِر قبل أن ينفردوا بشخصيتهم المستقلة ، وقد ترجمت أشعاره إلى معظم اللغات الرئيسية وأصبح معروفًا لدى قراء هذه اللغات بما يكتبه عنه أدباؤها أو يترجمون له فى لغتهم . وما أحرانا نحن أصحاب لغة الضاد أن ندرس حياة وأعمال هذا الشاعر الذى قال عنه نزار قبانى إنه « لؤلؤة نادرة فى خزانة الشعر الإسبانى » ، لأننا سنجد فيه قرابة لنا ، ونبعًا تأثر به جانب كبير من شعرائنا الذين عاشوا فى المهاجر الأمريكية .

فى الفترة التى ولد فيها بِكِر كانت الحركة الرومانسية الأوروبية التى بدأت فى ألمانيا ونضجت فى إنجلترا وفرنسا ، قد امتدت آثارها إلى الأدب الإسبانى ، بفعل عدة صحف أدبية تفرغت لنشر أخبارها ومبادئها ، وبفعل الترجمات العديدة التى نشرت بالإسبانية للأعمال الرومانسية الخالدة لفيكتور هوجو وجوته وبايرون وشيللى وهاينى وغيرهم . وقد رفع لواء هذه الحركة فى إسبانيا أفواج من المفكرين الإسبان الذين كانوا قد هاجروا من وطنهم أو نفوا إبان عهد طغيان الملك فرناندو السابع ، ثم عادوا بعد وفاته وقد تشبعوا بالجو الفكرى والأدبى فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا ، فحملوا معهم الأفكار السياسية الليبرالية ، ونقل الأدباء والفنانون منهم فيما نقلوا التأثيرات الرومانسية فى الأدب والفنون .

تمثلت الرومانسية الإسبانية ، مثلها فى ذلك مثل الرومانسيات الأوروبية ، فى السمو بالذات الإنسانية للفنان ، حتى أصبحت « الأنا »

عبادة لديه ، وأصبح العالم الخارجى مجرد انعكاس حرفى لصورته فى الذات . وصاحب ذلك شوق إلى الانطلاق والتحرر من عبودية التقاليد بكل أنواعها ، والتمرد على كل ما يقيد الروح والذات ، ومتابعة العواطف الجامحة والأهواء الطبيعية فى كل دروبها ، والهروب من الواقع والحقيقة إلى عالم الوجدان العنيف والخيال . غير أن الرومانسيين نظروا إلى الحياة باعتبارها مشكلة ميتافيزيقية ، إذ أحسوا بسطوة العوامل الخارجية التى تتحكم فى قدر الإنسان ومصيره ، فى الوقت الذى يتوقون فيه إلى التحرر من كل هذه القيود ، فانتهى الكثير منهم فى معظم الأحيان إلى إحساس عنيف بالتشاؤم والكآبة فى مواجهة القدر والواقع ، ثم التعبد فى محراب الآلام والمعاناة الناتجة عن صدامهم مع الحياة . وقد صاحب كل ذلك لديهم تسلط فكرة الموت والفناء عليهم بطريقة مرضية ، وظهورها فى أعمالهم الفنية بسمات واضحة غالبة .

نشطت الرومانسية فى إسبانيا بدءاً من عام ١٨١٠ ، ولم يأت عام ١٨٣٥ إلا وهى مزدهرة فى كل ألوان الأدب الإسبانى ، وكان من أعلامها البارزين دوق ريفاس ، وخوسية ثوريا ، وأسبرونثيدا ، وخوسيه دى لارا ، ورامون سولير ، الذين غمروا الجو الأدبى بالعديد من القصائد والأعمال المسرحية والمقالات التى شاعت فيها الروح الرومانسية ، وذلك بالإضافة إلى الروايات التاريخية التى حذت حذو ما كان يكتبه « وولتر سكوت » فى إنجلترا . ولقد كان من قدر بِكِر أن يحيا طفولته وصباه فى ذلك التيار العام ويتأثر به أيما تأثر ، بالإضافة إلى إسهام الظروف التى أحاطت بحياته بنصيب وافر فى تشكيل روحه بالطريقة التى مالت به إلى

هذا المنحى ، فكما فتح بِكِر عينيه على النور الدافق والشمس الساطعة التى تتميز بها إشبيلية ، فقد فتحها أيضاً على الشقاء وطعم المأساة فى المذاق . وكان بداية ذلك وفاة الأب ، ولمَّا يتجاوز الابن خمس سنوات من عمره ، مخلفاً وراءه أسرة كبيرة العدد تحوط بها الفاقة والحرمان . ولم يكد بِكِر يتم عامه الحادى عشر حتى سدد له القدر سهمه القاضى بوفاة أمه عام ١٨٤٧ ، مما أدى إلى تشتت شمل الأسرة نهائيًا ، إذ عاش إخوتة مع عم لهم ضمهم هو وزوجته من بعده تحت كنفه إلى حين خروجهم إلى دنيا العمل . أما بِكِر فقد عاش مع واحدة من صديقات والدته كانت ميسورة الحال وكانت أشبينته يوم تعميده . وقد أورثته تلك الظروف الأليمة قلقًا روحيًا ، وخلعت على قصائده كآبة وتشاؤما ، نبعا من فكرة الحرمان من الملاذ والمأوى بسبب زوال حِمى الأبوين عنه منذ الصغر .

يقول فى إحدى قصائده التى كتبها بعد ذلك :

أسدل الليل أستاره

ولم أجد لى ملاذاً

كنت عطشًا

فشربت من دموعى

وكنت مسغبًا

فأغلقت عينى المتورمتين

كيما أموت !

أكنت أحيا فى صحراء ؟
بل كان يصل إلى سمعى
لغط الناس وهمهماتهم .
كنت يتيماً مسغباً
لذلك بدت الدنيا فى عينى
صحراء مهجورة .

ويقول فى قصيدة أخرى :
مَثَلُ حياتى كمثل حقل مجدب
أو زهرة تتساقط أوراقها عند لمسها
ففى طريقى الهلوك
ثمة من يزرع الشوك
ومكتوب لى أنا أن أحصده .

قضى بكر فى بيت أشبينته ، ثم فى بيت امرأة عمه ، فترات تكوينه الفنى حتى عام ١٨٥٤ . وعكف بادئ الأمر على قراءة ماتحويه مكتبة أشبينته من ذخائر الآداب العالمية المترجمة إلى اللغة الإسبانية ، وأحب منها مؤلفات شاتوبريان ومدام ستايل وجورج صائد وبلزاك ، وأشعار سلفه العظيم لورد بايرون الذى تأثر به كثيراً ، وموسيه وهوجو ولامارتين ،

والألمانى هنريش هاينى ، وذلك بالإضافة إلى المؤلفين الإسبان ، ومنهم سرفانتس وثلة الشعراء الرومانسيين وخاصة أسبرونثيدا . وقد أعانته اللاتينية التى درسها فى طفولته - إلى جانب الفرنسية - على قراءة أناشيد هوراس الغنائية والتأثر بها فى أشعاره اللاحقة . وعملت تلك السنوات التى انكب فيها على القراءة والتحصيل الذاتى على الابتعاد به عن الحياة الطبيعية التى يعيشها أقرانه من الصبية ، وإغراقه فى عالم غريب تمامًا عن العالم الواقعى ، كما أعانته قراءاته الرومانسية على تنمية ميله الطبيعى نحو التأمل فى ذاتة ، وقدمت له عالمًا من الأحلام والمغامرات عوضه عن غياب اتصاله بعالم اللهو واللعب الخاص بمن هو فى مثل سنه .

وككل فنان تضيق بيئته الإقليمية عنه وعن طموحه ، ما إن يكمل بكِر عامه الثامن عشر حتى ينزح من بلده الأندلسى إلى العاصمة مدريد ليبدأ حياته العملية فى الأدب ، تفعمه الثقة بأنه سيجد هناك الإطار الذى تستطيع فيه موهبته الأدبية أن تنسج إبداعها وفنها . ولكن الواقع يعصف دائمًا بآمال الحالمين ، فكما يحدث دائمًا ، لم يكن استقبال العاصمة لذلك العصفور الرقيق مثلما توقع ، بل إنه اضطر إلى الجهاد والمجالدة من أجل الحصول على لقمة العيش . ولكنه حرص على أن يكون جهادًا لا يبعد به عن أعتاب الأدب والكتابة ، فعمل محررًا فى صحف مختلفة ، يترجم لها من الصحافة الفرنسية ، ويعلق فيها على بعض المسرحيات والأشعار . وساعده ذلك على الاتصال المستمر بالحركات الأدبية المتجددة فى الخارج ، ومتابعة كل جديد فى عالم الفن

والأدب بالداخل . وقد بدأ فى تلك الفترة بنشر قصائده فى تلك الصحف ، كما شرع فى تدبيج عدة أعمال أدبية ، منها تاريخ فنى للكنائس فى إسبانيا ، كتب فيه فصولاً ثم تركه ، وتحول ليكتب كوميديا غنائية ولم يتمها ، بما عرف عنه من قلق وعدم استقرار على شىء يتطلب تركيزاً ومزيداً من الوقت ، ولذا كان الشعر الغنائى هو واحته ومتنفسه . وهو هنا يواجه - مثله فى ذلك مثل كل رفاقه خاصة الرومانسيين منهم - مشكلة التعبير . ذلك أن هؤلاء الشعراء تضطرم أفئدتهم وخيالاتهم بالصور والأحاسيس التى يتوقون ويجاهدون لإخراجها سطوراً على الورق ، إلا أن اللغة لا تسعفهم ، وتبدو لهم عرجاء لا تنقل بأمانة عالم الإحساسات والرؤى والتهويمات .

ولقد مر شاعرنا بتلك المعاناة وجرب ذلك الصراع الداخلى المتكرر آلاف المرات :

إنى أعرف نشيداً هائلاً وغريباً

يبشر بالفجر ظلام ليل الروح .

وهذه الصفحات

هى إيقاعات من ذلك النشيد

ينثرها الهواء فى أرجاء الظلال .

لكَم أحلم بأن أخطه سطوراً على الورق

وأتحدث فيه عن الإنسان

وهو يروض اللغة المتمردة الضحلة

وأصوغه فى كلمات كانت بالأمس

نهدات وضحكات ، ألوانًا وألحانًا .

ولكن أواه من غرور البشر !

فليس هناك من صور تستطيع له تعبيراً .

وأنا بالكاد أيتها الحسناء

أستطيع أن أهمس لك به وحدك

حين أمسك يدك بين راحتيا .

آمن بكر بالميوز ربة الشعر وبأبولون إله الفن . وكان يتعلق بأستارهما كلما عصفت به حياة العاصمة التافهة القاسية التى لا تأبه بالشعراء ذوى الأحاسيس المرهفة ولا ترحمهم . عرف بكر حياة الفقر بل والجوع ، ولم يكن أمامه من ملجأ أو متنفس سوى الكتابة ، والهرب من ابتذال الحياة إلى عالم الشعر الطموح المفعم بالآمال ، ذلك العالم الروحى الجميل ، نتاج الأحاسيس الدفاقة ، وهو يشعر بنفسه فى ذلك العالم سيداً وملكًا متوجًا :

أنا ذلك الدرج الخفى

الذى يربط السماء بالأرض .

أنا ذلك الخاتم المجهول

الذى يخضع عالم الصور

لعالم الأفكار .

أنا فى مجمل القول تلك الروح .

ذلك الجوهر المجهول

العطر الغامض

الذى يحل فى جسد الشاعر .

ويقول فى قصيدة أخرى :

أجدف فى بحر من شكوكى

ولا أعرف أيان يتجه إيمانى .

ورغم ذلك

يشير لى ذلك القلق الذى يعترينى

أنى أحمل داخل روحى

شيئًا مقدسًا .

واهتمام الشاعر بفنه ، وشعوره بقيمة هذا الفن ، يشكلان جانبًا مهما من جوانب إبداعه الشعرى ، كما يستبين فى ديوانه « أشعار » ، أما الجانب المهم الآخر فهو الحب والمرأة . ومرة أخرى ، أثر إحساس الشاعر بالخذلان منذ صغره ، ومحاولته الهروب إلى عالم مثالى لا يعرف معنى الإحباط ، على اتجاهاته نحو المرأة . وهكذا كان الحب الوحيد لبِكِر هو الحب الذى لا يمكن تحقيقه ، والمرأة الوحيدة فى حياته هى المرأة التى يستحيل وجودها .

ومن هنا جاء هيامه بالأشكال التى لا ملمس لها ، والنساء اللاتى لا يمكن الوصول إليهن ، وتلك السلسلة من الأحلام المستحيلة التى تعمر العالم الذى خلقه لنفسه :

– أنا جمرة مشتعلة ، سمراء

أنا الرغبة مجسدة .

تفعم روحى شهوات اللذة

فهل أنا من تبحث عنى ؟

– كلا ، لست أنت من أنشد .

* * *

– جبينى يظلله الشحوب

وضفائرى من ذهب نضار .

بوسعى أن أهبك سعادة غامرة

وعندى مفاتيح كنوز الحنان

فهل أنا من تنادى ؟

– كلا ، لست أنت من أنادى .

– أنا حلم من الأحلام

أنا شىء من المستحيل

طيف خيال مجبول من غمام ونور

لا صورة لى ولا ملمس

وليس فى مقدورى أن أحبك .

- آه ، تعالى ،تعالى أنت .

ويقدر إيمان بِكِر بفنه ، آمن بذلك النوع من الحب وتلك الطرز من المرأة ، فإلهاماته مستمدة منها ، وهى بدورها رمز للشعر نفسه :

تسألينني ما الشعر

وترشقين عينيك الزرقاوين فى مقلتيا

ما الشعر ؟ وأنت التى تسألين ؟

ما الشعر ، يا حبيبتى إلا أنت .

ويقول فى قصيدة أخرى تعيد إلى ذهن القارئ قصيدة « كيتس » المشهورة « أنشودة إلى آنية إغريقية » :

طالما أن ثمة مقلاً

ترد على النظرة بمثلها ،

طالما ترد نهدات الشفاه

على الشفاه التى تتنهد ،

طالما وُجد روحان حائران

تتفجر أحاسيسهما فى قبلة غامرة . . .

طالما وجدت نسوة جميلات

فسيكون هناك دوماً شعر .

ورغم أن بِكِر قد هام بالمرأة باعتبارها المثل العلوى للجمال ، إلا أن حياته لم تشهد سوى عاطفتين « أسيانتين » ، أولاهما كانت لفتاة من الطبقة الأرستقراطية تدعى « إليزاجيان » ، شغلت بال الشاعر وفؤاده طوال عامى ١٨٥٩ و ١٨٦٠ ، وأحبها حبا جارفًا أعمى . وكانت ذات جمال أخاذ ، غير أنها لم تستطع بحكم طبيعتها وظروف نشأتها أن تتفهم رقة المشاعر فى قلب ذلك المحب الذى أراد أن يقف حياته عليها ، ولهذا لم يكن ممكنًا أن ينتهى هذا الحب إلى نتيجة :

كنت أنت العاصفة

وأنا البرج العالى الذى يتحدى قوتها .

كان عليك أن تنكسرى أو أن أنهدم

فكان حبنا مستحيلاً !

* * *

كنت أنت المحيط

وأنا الصخرة الشامخة

التى تتلقى فى ثبات موجاته الهادرة

كان عليك أن تنحطمي أو أن تجرفني الموجات

فكان حبنا مستحيلاً !

* * *

أنت ، جميلة

وأنا ، ذو كبرياء

حملت العادة أحدنا على الانتصار

والآخر على عدم الاستسلام

ولا مناص من الصدام

فكان حبنا مستحيلاً !

وتستبين في قصائد عدة من ديوان الشاعر الوحيد « أشعار » ، آلام الحب وشكوكه وغيرته التي عصفت ببِكرِ ، مع كل ما يكتنف ذلك من علاقات متشابكة :

تصاعدت دمعة إلى مآقيها

وارتسمت على شفتي عبارة غفران

ولكن الكبرياء قال كلمته

فاختنق بكاؤها

وتلاشت العبارة على شفتي

وسرنا كل فى طريق .

ولكن

حين أفكر فى حبنا المتبادل

أقول ولا أزال :

لماذا انعقد لسانى يومذاك ؟

وتقول هى :

لماذا لم أبك آنذاك ؟

ويترك بِكِر حبيبته إليزا إلى الأبد ، ولكن ذكراها لا تفارقه أبداً ويعترف أن حبهما لن يكون له مثيل ، فى قصيدة يحفظها طلبة المدارس والشباب فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية عن ظهر قلب على مر العصور ، ويقول مطلعها :

مرة أخرى

ستبنى البلابل السمراء أعشاشها على نافذتك

وستضرب الزجاج بأجنحتها مرة أخرى .

ولكن تلك البلابل

التى كانت تتأنى فى طيرانها

كيما تتأمل جمالك وتطالع سعادتى

تلك البلابل التى عرفت اسمينا ...

هذه ... لن تعود أبداً .

وكان لابد لشاعرنا من حب آخر يضمد الجراح التى أصابته بها إليزا ، فكان أن اقترف « الهامارشيا » أو « العثرة » التى تميز كل الأبطال التراجيديين ، وأقدم على زواج مفاجئ عام ١٨٦١ من « كاستا استبان » وهى فتاة على النقيض التام من إليزا ، من طبقة دنيا ، قليلة المحصول من الثقافة لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها ، إلا أنها كانت بارعة الجمال هى الأخرى ، وقد أثملها أن تتزوج من فنان شاعر . وقد خلدها هذا الشاعر فى عدة مقطوعات ، منها تلك السطور الرقيقة المعنونة « إلى كاستا » وهى من القصائد القليلة التى أعطاها مؤلفها عنوانًا :

أنفاسك أنفاس الزهور

وصوتك نغم من أغاريد البلابل

نظراتك هى بهاء النهار

ولونك لون الورود .

إنك تنفثين حياة وأملاً جديدين

فى فؤاد قد مات عنه الحب .

إنك تنفثين حياة وأملاً جديدين

كما تنمو الزهرة فى قلب البرية

وهو لابد قد كتب هذا الشعر فى الأيام الأولى من الزواج ، فقد تبين له بعد وقت قصير مدى الخطأ الذى ارتكبه بزواجه ذاك ، نتيجة البعد الشاسع بين الطبيعة التى جبل عليها كل من الزوجين ، واختلافهما اختلافًا بيِّنا فى الأهواء فلم ينعم بالاستقرار ولا بالسعادة ، وقد كان فى

أمس الحاجة إليهما ، بل زاد من تنغيصه وآلامه .. ولم يخفف عنه فى تلك الفترة إلا التحاقه بالعمل فى صحيفة شهيرة مرموقة بالعاصمة ، هى صحيفة « المعاصر » حيث كتب فيها عدداً من القصص الخيالى فى سلسلة تحمل اسم « أساطير » وبدأ ينشر فيها من آن لآخر الكثير من قصائد ديوانه « أشعار » وكانت مثل هذه القصائد جديدة على القارئ الإسبانى ، بما اتسمت به من ابتعاد عن الصيغ الرنانة والعبارات الفخمة ، التى كانت من مميزات الشعر وقتها ، إذ إن بِكِر قد فتح بها صفحة الشعر الهامس الذى ينفذ إلى الوجدان عن طريق الحديث العادى ولغته البسيطة ، وهو لهذا بحر نهل منه الشعراء المحدثون فى إسبانيا .

ويقضى شاعرنا وقته ما بين الصحيفة ومطابعها ، وبين مقهى « سويثو » أى السويسرى حيث تنعقد ندوته الأدبية ، أو نراه جوالا فى طرقات مدريد وزائراً لحلبة مصارعة الثيران بها ، إذ أصبح يتجنب البقاء فترات طويلة فى منزله ، ويخفف من وحدة بِكِر الروحية انتقال أخيه فالريانو ، الذى حاز شهرة فى الرسم ، إلى مدريد ، حيث أصبحا لا يكادان يفترقان ، ورحلا معاً فى ديسمبر ١٨٦٣ إلى دير « فرويلا » فى مدينة سرقسطة لدواعى الاستشفاء والعمل ومكثا هناك فترة كتب فيها بِكِر عدة مقالات أدبية رائعة بعنوان « خطابات من سجنى » نشرها فى « المعاصر » أيضاً . وفى عام ١٨٦٥ ، يتحقق له بعض الاستقرار المادى ، إذ يحصل على وظيفة حكومية يسرها له وزير الداخلية فى ذلك العهد وكان من أشد المعجبين بأدبه ، وهى وظيفة تماثل وظيفة الرقيب على القصص فى أيامنا هذه ، وشغلها حتى عام ١٨٦٨ . وقد توفر فى تلك الأعوام الثلاثة على إكمال قصائد ديوانه ، وأعد مخطوطاً له أعاره

لصديقه الوزير ليقرأه ، إلا أنه فقد إبان الاضطرابات التى اجتاحت مدريد أثناء ثورة ١٨٦٨ التى أسقطت الملكة إيزابل الثانية عن العرش وأطاحت بالحكومة القائمة ، وأطاحت معها بمنصب بِكِر الحكومى الذى تركه طائعًا مختاراً . وكانت الثورة الإسبانية بداية سلسلة من عدم الاستقرار السياسى أدى فى النهاية إلى إعلان الجمهورية الإسبانية الأولى عام ١٨٧٣ .

كان ضياع مخطوط ديوانه الوحيد خسارة تركت آثاراً مريرة فى نفس بِكِر ، ضاعف منها انفصاله فى نفس العام عن زوجته كاستا إثر أزمة عائلية قبل قليل من مولد ابنه الثالث منها ، وفقده منصبه فى الرقابة . وقد عاد الشاعر إلى عمله المنقطع فى الصحف الأدبية ، وعكف فى الوقت نفسه على إعداد مخطوط آخر لديوانه . إلا أن القدر لم يمهله كثيراً ليرى نتاجه هذا يخرج إلى النور فى كتاب ، فقد طوى الموت أخاه فالريانو فى سبتمبر ١٨٧٠ ، فأنزل به ضربة قاصمة فى فقد رفيق روحه الأثير ، فلم يعد أمامة سوى أن يكف عن الصراع فى هذه الدنيا التعسة ، ويدع جسده ليموت لتلحق روحه بروح أخيه ، فأصيب بعد شهرين بالتهاب رئوى حاد لم يتحمله صدره العليل فقضى عليه فى ديسمبر من العام نفسه وكاد موته أن يقارب الموت الاختيارى - الموت الرومانسى ، فبعد أن صم أذنيه عن ضجيج العالم من حوله وأنصت إلى نداءات روحه الدفينة ، لم يعد أمامه إلا أن يوقع الصك الرهيب الذى دائمًا ما تعين على كثير من الفنانين أن يوقعوه مع الموت ، وذلك حتى يبدأ الناس فى قراءة أعمالة وفى تقدير قيمتها الحقيقية . وكانت حياة بِكِر صورة من تلك القصيدة التى جادت بها قريحته المتنبئة ، وهى تماثل كثيراً فى

روحها وبعض كلماتها قصيدة شاعرنا الكبير إيليا أبى ماضى « الطلاسم » .

سهم يطير وقد أطاح به القدر

لا يدرى وهو يرجف أيان مستقره

ورقة شجر ذابلة تنتزعها العاصفة

دون أن يعرف أحد الدغل الذى تستحيل فيه ترابًا .

موجة هائلة تثنيها الرياح

وتلفها وتدفع بها نحو البحر

وهى لا تدرى أى شاطئ تنشد .

نور تلتمع ذؤابته فى دوائر واجفة

قبل أن تنطفئ

وهو يجهل أى دائرة سيلقى فيها نهايته .

هكذا أنا

أنا الذى ألقت بى المصادفة إلى هذه الدنيا

دون أن أعلم من أين جئت

ولا إلى أين تقودنى خطواتى .

وهكذا استطاع هذا الرومانسى الثائر الشقى أن يستريح كما استراح أسلافه من الشعراء ، وأن ينام ذلك السبات الذى طالما تمناه : « سباتا لا تخطر فيه الأحلام » .

حازت ترجمة هذا الديوان من اللغة الإسبانية الأصلية على جائزة سرفانتس - نجيب محفوظ للترجمة من الإسبانية إلى العربية فى دورتها الأولى عام ٢٠٠٢

(١)

إنى أعرف نشيداً
هائلاً وغريباً
يبشِّر بالفجر ظلام ليل الروح
وهذه الصفحات
هى إيقاعات من ذلك النشيد
ينثرها الهواء فى أرجاء الظلال

* * *

لكَم أحلم بأن أخطه
سطوراً على الورق
وأتحدث فيه عن الإنسان
وهو يروِّض اللغة المتمردة الضحلة
وأصوغه فى كلمات

كانت بالأمس نهدات وضحكات ...
ألوانًا وألحانًا .

* * *

ولكن ...
أواه من غرور البشر !
فليس هناك من صور تستطيع له تعبيراً .
وأنا بالكاد أيتها الحسناء
أستطيع أن أهمس به لك وحدك
حين أمسك يدك بين راحتيا .

(٢)

سهم يطير وقد أطاح به القدر
لا يدرى وهو يرجف أيان مستقره
ورقة شجر ذابلة تنتزعها العاصفة
دون أن يعرف أحد الدغل الذى تستحيل فيه ترابًا
موجة هائلة تثنيها الرياح
وتلفها وتدفع بها نحو البحر
وهى لا تدرى أى شاطئ تنشد
نور تلتمع ذؤابته فى دوائر راجفة
قبل أن تنطفئ
وهو يجهل فى أى دائرة منها سيلقى نهايته
هكذا أنا
أنا الذى ألقت بى المصادفة إلى هذه الدنيا
دون أن أعلم من أين جئت
ولا إلى أين تقودنى خطواتى .

(٣)

هزة غريبة
تشيع الصحوة فى الأفكار
كأنما هى عاصفة
تدفع أمامها الموجات دفعًا عنيفًا .

* * *

همسٌ
يصَاعد فى النفس
وينمو مع الزمن
كأنما هو بركان خامد
يرهص باشتعالاته الوشيكة .

* * *

أشباح غامضة

لكائنات خرافية

لوحات تنبسط

كأنها تتبدى من خلف شفيف الستار .

* * *

ألوان تنصهر

فتحاكى فى الهواء

ذرات قوس قزح

سابحة فى الضياء .

* * *

أفكار ليست لها من كلمات

كلمات ليست لها من معان

إيقاعات

ليست لها أوزان ولا قواف .

* * *

ذكريات ورغبات
لأشياء ليس لها من وجود
دروب تفضي إلى البهجة
ودوافع تحمل على البكاء .

* * *

انفعالات محمومة
لا تجد متنفساً لها
جواد طائر
دونما لجام يهديه الطريق .

* * *

جنون
تشعله الروح وتذكي أواره
نشوة إلهية
للعبقرية الخلاقة .
هكذا هو الإلهام .

* * *

صوت جهورى

ينظم فوضى العقل

ويفجّر النور

من وسط الظلمات .

* * *

رباط ذهبى لامع

يمارس سطوته

فيكبح جماح الجواد الطائر

الذى يفعم العقل بالنشوة .

* * *

خيط من الضياء

يصل ما بين الأفكار

شمس تكسر من حدة السحب

وتضرب إلى آفاق السماوات .

* * *

يد بارعة
تنظم الكلمات العصية
فى سمط من اللآلئ .

* * *

إيقاع متناسق
يجمع الألحان الشرود
فى وحدة وانسجام
بالأوزان وبالأرقام .

* * *

أزميل ينحت فى الصخر
ويشكّل التماثيل
ثم يلعب جمال الفن دوره
فيضيف إلى المثال .

* * *

جو تطوف فيه الأفكار
وتدور فى اتساق
مثلها مثل الذرات
التى تجمع جاذبيات خفية .

* * *

نهر
تطفئ الحمّى ظمأها من موجاته
واحة
ترد الصحوة إلى الروح الغافية .
هكذا هو الحجى .

* * *

والإلهام والحجى
دوما فى صراع مستمر
ولابد من السيطرة عليهما .
والعبقرى وحده

هو الذى قد قسم له
أن يجمع ما بين الاثنين
تحت قياده .

(٤)

لا تقل لى إن القيثارة قد خرست
بعد أن استنفدت كل ما لها من كنوز
ولم يعد لديها من شىء تحكيه
ففى الإمكان أن تخلو الدنيا من الشعراء
ولكن سيكون هناك دومًا شعر .

* * *

طالما أن موجات الضياء
تخفق وهاجةً فى قبلات .
طالما تكسى الشمس السحب المتلاحقة
بالنيران والنضار
طالما يحمل الهواء
العطر والأنغام فى ثناياه ...

طالما يهل على الدنيا الربيع
فسيكون هناك دوما شعر .

* * *

طالما أن العلم
لا يقدر على كشف منابع الحياة
وأن البحار والسماء تنطوى
على أغوار سحيقة لا ينفذ إليها الحجى
طالما أن البشرية دوماً تسير
دون أن تعلم إلى أين المطاف ...
طالما بقى لغز يستعصى على الإنسان حله
فسيكون هناك دوما شعر .

* * *

طالما يشعر الإنسان أن روحه تزغرد
دون أن تتحرك شفتاه
طالما يبكى الإنسان

دون أن تظلل عينيه دموع

طالما يمضى الفكر والفؤاد فى اصطراع دائم . . .

طالما ثارت الآمال وتوهجت الذكريات

فسيكون هناك دوما شعر .

* * *

طالما أن ثمة مُقلا

ترد على النظرة بمثلها

طالما ترد نهدات الشفاه

على الشفاه التى تتنهد

طالما وجد روحان حائران

تتفجر أحاسيسهما فى قبلة غامرة . . .

طالما وجدت نسوة جميلات

فسيكون هناك دوما شعر .

(٥)

أنا روح بلا اسم

أنا جوهر بلا حدود

أنا أحيا مع الحياة

دون أى صورة من صور الأفكار .

* * *

أنا أسبح فى الفراغ

وأرتعد فى نيران الشمس

أنبض وسط الظلال

وأطفو مع أطياف الغمام .

* * *

أنا الهالة الذهبية
لتلك النجمة القصية
وأنا من ذلك القمر العالى
نوره الدافئ الرصين .

* * *

أنا تلك السحابة الوهاجة
التى تتمايل عند الغروب
وأنا من ذلك الشهاب المارق
وميضه البرّاق .

* * *

أنا الثلج الذى يكلل الذرى
أنا النيران التى تضطرم فى الرمال
الموجة الزرقاء فى البحار
والزَبَد على الشطآن .

* * *

ومن ذلك العود أنا لحنه العذب
ومن تلك البنفسجة عطرها الفواح
ومن اللحود شعلتها الوهاجة
واللبلاب الأخضر من تلك الأطلال .

* * *

أنا أشدو مع العندليب
وأتماوج مع النحلات
وأحاكى أحيانًا تلك الأصداء
التى تتردد فى الليل البهيم .

* * *

أنا أهدر مع الشلال
وأصفر مع التماع النيران
أعشى من وهجة البرق
وأزأر مع هدير العاصفة .

* * *

أنا أضحك من فوق التلال

وأسرى وسط كثيف الأعشاب

أتنهد مع الموجة الصافية

وأبكى سقوط ذابل الأوراق .

* * *

أنا أتماوج مع ذرات الدخان

التى ترتفع إلى الأعالى

وتصعد إلى السماء تتهادى

فى دوامة مضطرمة هائلة .

* * *

أنا أتأرجح وسط الأشجار

وأرقد عند الظهيرة الحارقة

على مهد من خيوط ذهبية

نسجتها دقيق الكائنات .

* * *

أنا أجرى وراء الحوريات
اللآئى يلعبن عاريات
فى مسرى المياه المنعشة
للجدول الصافى الرقراق .

* * *

أنا أطارد جنيات البحر الرقيقات
فى وسط المحيطات
فى ثنايا غابات مرجانية
تفرش الأرض باللآلئ البيضاء .

* * *

أنا أخالط أهل عبقر
وأتأمل ما يحملون من كنوز
فى داخل سحيق الكهوف
حيث لا يطلع شمس ولا قمر .

* * *

أنا أبحث فى القرون الغابرة
عن أحداث اندثرت منها المعالم
وأعرف حكايا عن ممالك
لم يبق منها ولا حتى اسمها .

* * *

أنا أتابع فى سرعة هائلة
العوالم التى تدور وتلف من حولى
وعيناى تحيطان
بالخلق أجمعه .

* * *

أنا أعرف مناطق من الكون
لا تصل إليها ولا الهمسات
حيث ثمة كواكب غامضة
فى انتظار نفحة من نفحات الحياة .

* * *

أنا من فوق الهوة السحيقة

ذلك الجسر الذى يغطيها

وأنا ذلك الدَرِج الخفى

الذى يربط السماء بالأرض .

* * *

أنا ذلك الخاتم المجهول

الذى يخضع عالم الصور

لعالم الأفكار .

* * *

أنا فى مجمل القول تلك الروح

ذلك الجوهر المجهول . . .

العطر الغامض

الذى يحل دومًا فى جسد الشاعر !

(٦)

تسرى فى صمت الليالى
محملة بالعطر وبالأنغام
كالنسمة التى تروّح بها الدماء
فوق ساحة المعركة المظلمة .

* * *

رمزاً للألم وللحنان
فى المأساة الفاجعة التى خطها شكسبير
تمضى " أوفيليا " العذبة وقد فقدت رشدها
تقطف الأزاهير وتشدو بالألحان .

(٧)

في زاوية مهجورة من الصالون

ارتمى المعزف

صموتا يغطيه الغبار

وقد نسيه صاحبه .

* * *

كم من ألحان نامت على أوتارك

كما ينام الطائر على الغصون

في انتظار هطول الثلوج

التي تعرف كيف تنتزعه من مكمنه !

* * *

آه ، كم من المرات
تنام العبقرية هكذا في أغوار النفس
في انتظار ما حدث لأليعازر
صوت يصيح بها : انهضي وسيري .

(٨)

حين أرقب الأفق الأزرق
يغيب على البعد ويتوه
ذهبيًا ... ساكنًا ...
على حاشيةٍ شفافةٍ من الغبار
يبدو لى ساعتها أن بوسعى
أن أنتزع نفسى من هذه الأرض البائسة
وأطفو مع السحب الذهبية
وأتحول مثلها إلى ذرّات دقيقة .

* * *

حين أتطلع فى الليل
إلى أعماق السماء المظلمة
وأرى النجوم ترتعد

مثل حدقات النيران المشتعلة
يبدو لى ساعتها أن بوسعى
أن أطير إلى حيث بريقها
وأغمر نفسى فى نورها
وأنصهر فى قبلة معها
فى نور وهاج مشتعل .

* * *

أجدف فى بحر من شكوكى
ولا أعرف أيان يتجه إيمانى
ورغم ذلك ...
يشير لى ذلك القلق الذى يعترينى
أنى أحمل داخل روحى
شيئًا مقدسًا .

(٩)

تتأوه النسمة فى رقة

وهى تقبَل الموجات الهادئة

وتربت عليها لاهية

والشمس تقبّل السحابة فى الغروب

وتضفى عليها صبغة أرجوانية واصفراراً .

وجمرة النيران

من حول الجذوة المشتعلة

تميل جانباً كيما تقبّل جمرة أخرى

وحتى شجرة الصفصاف

تنحنى بكل قوتها على النهر الذى يقبِّلها

كى ترد له القبلة بمثلها .

(١٠)

تصطفق ذرات الهواء الخفية
وتشتعل متوهجة فى كل الأنحاء
وتنحطم السماء فى أشعة من نضار
وترجف الأرض من البهجة والسرور
وأسمع حفيف قبلات ورفرفات أجنحة
تطفو فى موجات من الأنغام
وينغلق جفناى ...
ما الأمر ؟
صمتا ! إنه الحب قد مر من هنا !

(١١)

أنا جمرة مشتعلة سمراء

أنا الرغبة مجسدة

تفعم روحى شهوات اللذة

فها أنا من تبحث عنى ؟

كلا ، لست أنتِ من أنشد .

* * *

جبينى يظلله الشحوب

وضفائرى من ذهب نضار

بوسعى أن أهبك سعادة غامرة

وعندى مفاتيح كنوز الحنان

فهل أنا من تنادى ؟

كلا ، لست أنتِ من أنادى .

أنا حلم من الأحلام

أنا شيء من المستحيل

طيف خيال مجبول من غمام ونور

لا صورة لى ولا ملمس

وليس فى مقدورى أن أحبك .

آه ، تعالى ، تعالى أنتِ .

(١٢)

أتشتكين يا فتاتى
لأن عينيك خضراوان خضرة البحار ؟
ما عيون جنيات البحر إلا خضراء
وما كانت عينا " منيرفا " إلا خضراوين
وخضراء هى حدقات حوريات الجنان .

* * *

الخضرة تضفى فخامة ورونقًا
على الغابات فى الربيع
وقوس قزح ، من بين ألوانه السبعة
إنما يزهو باللون الأخضر البراق .

* * *

الزمرد أخضر

وأخضر هو لون الأمل . . .

وكذلك موجات المحيط

وأعواد الغار التى تتوج هامات الشعراء

* * *

وجنتكِ وردة باكرة

مغطاة بالندى

وتتراءى حمرة الأوراق

من خلال لآلئه .

ورغم ذلك أعرف أنك تشتكين

إذ تحسبين أن عينيك تخفيان هذا الجمال

ولكنك تخطئين

لأن حدقتيك تبدوان

رطيبتين ، خضراوين ، قلقتين

كأوراق باكرة فى شجرة لوز

ترجف عند هبوب الهواء .

* * *

فمكِ الياقوتى

رمانة أرجوانية متفتحة

تدعو فى الصيف من ينظر لها

إلى إرواء ظمئه من منهلها

ورغم ذلك أعرف أنك تشتكين

إذ تحسبين أن عينيك تخفيان هذا الجمال

ولكنك تخطئين

فهما تبدوان حين تغضبين

فتلتمع حدقتاهما وتتلألآن

كأمواج البحر

التى تتكسر على صخور الشمال .

* * *

على جبينكِ

تاج متماوج من النضار

جدائل رحيبة

ذرىً من الثلوج

يعكس فيها النهار ضوءه الأخير
ورغم ذلك أعرف أنك تشتكين
إذ تحسبين أن عينيك تخفيان هذا الجمال
ولكنك تخطئين
فالجفون الشقراء
إلى جوار الوجنتين
تبدو أوسمة من الزمرد والذهب
ترصع صدر غزال ناصع البياض .

* * *

أتشتكين يا فتاتي
لأن عينيك خضراوان خضرة البحار ؟
ربما لو أصبحتا سوداوين أو زرقاوين
لندمتِ على شكواك .

(١٣)

حدقتاكِ زرقاوان

وحين تضحكين

يذكرنى صفاؤهما العذب

بوهج الصباح الراجف

الذى ينعكس على البحر .

* * *

حدقتاك زرقاوان

وحين تبكين

تبدو بينهما الدموع الرقراقة

نقاطًا من الندى

فوق زهرة من زهور البنفسج .

* * *

حدقتاكِ زرقاوان

وحين تلتمع في خلفيتيهما فكرة من الأفكار

كأنها نقطة من نقاط الضياء

تبدوان لي نجمتين من نجوم السماء

تتهاديان في سماء الأصيل .

(١٤)

رأيتكِ هالةً تسبح أمام عينيَ
وتركتِ معي صورة عينيكِ
كأنما هي نقطة سوداء توشيها النيران
تطفو وتعشي الأبصار
إذا نظر المرء إلى شمسها الوهاجة .

* * *

أينما أتوجه ببصرى
أميل فأرى حدقتيكِ تتوهجان
ولكنى لا ألقاكِ أبداً
بل نظراتكِ
عيناكِ ، عيناكِ ،
لا شيء غير ذلك .

أنظر إليهما

وأنا راقد فى ركن غرفتى

تمرقان وتلمعان فى بهاء

وحين أنام

أشعر بهما محدقتين بى

وقد انفتحتا فوقى

من كل حدب وصوب .

* * *

أنا أعلم أن هناك أنواراً فوسفورية

تتراءى للعابر فى الليل

وتقودانه إلى الهلاك

وأنا أشعر

أننى أجنح وراء عينيكِ

إلى حيث لا أدرى ولا أعلم .

(١٥)

ديباج هفهاف

من خفيف الغمام

شريط متماوج

من ناصع الزَبَد

حفيف مرنان

معزف من ذهب

قبلة النسمة الرقيقة

موجة من موجات الضياء

هكذا أنتِ .

* * *

أنتِ

طيف من أطياف الهواء

كم مرة هممتُ أن أمسك بك

فتختفين كأنك الوهج

كأنك الصوت ، كأنك الغمام

كأنك الأنين المنبجس من البحيرة الزرقاء .

* * *

موجة مرنانة

فى البحر الذى لا شطآن له

وفى الفضاء شهاب مارق

الأنين المتطاول للرياح العاصفة

الشوق الدائم إلى الأفضل

هكذا أنا .

* * *

أنا

الذى أرسل عيني ليلاً ونهاراً

فى ظل آلامى

كيما تقبلا عينيك

أنا

الذى أجرى وأهيم

مخبولا وبلا كلل

وراء طيف . .

وراء سليلة خيال مضطرم .

(١٦)

لو رنَّت الأجراس الصغيرة الزرقاء

فى شرفتكِ

فحسبتيها الرياح الخفاقة

تتنهد فى مرورها

فلتعلمى إنما هى نهداتى

وقد اختبأتُ وسط الأوراق الخضراء .

* * *

لو شعرتِ بحفيف غامض

يخفق من حول كتفيك

فحسبتيه صوتًا قصيًا

يهتف باسمك

فلتعلمى إنما أنا الذى أناديك

من بين الظلال التى تحوطك .

لو أن فؤادكِ الخجول اضطرب

في وسط الليل البهيم

وشعرتِ بأنفاس حارقة

ترقد على شفتيك

فلتعلمي إنما أنا أتنفس إلى جوارك

رغم أني لا تراني العيون .

(١٧)

اليوم تبسم لى السماوات والأرض

اليوم تغمر أنوار الشمس أعماق روحى

فقد رأيتها اليوم

رأيتها ونظرتْ لى

فاليوم آمنتُ برب السماوات والأرض .

(١٨)

أضناها الرقص

وتوهجت وجنتاها وتلاحقت أنفاسها

فاستندت إلى ذراعى

وتوقفت فى ركن من أركان الصالون .

* * *

وعلى الثوب الرفيق

الذى يحمله النهد الخافق

كانت ثمة زهرة تهتز

مع دقات القلب العذبة .

* * *

كأنها فى مهد من اللؤلؤ
يهزه البحر وتهدهده نسمات الصبا
ربما نامت هناك
على أنفاس ثغرك المنطبق .

* * *

آه ، جال بخاطرى ،
كيف للإنسان أن يدع الزمن ينفلت منه !
آه ، حين تنام الزهور ،
كم يكون سباتها عذباً وحلواً .

(١٩)

حين تُميلين جبينك الحزين فوق صدرك
تبدين لى زهرة سوسن كسيرة
قد جبلكِ الله مثلها من نضار ومن ثلوج
وخلع عليك رمزها السماوى الطهور .

(٢٠)

فلتعلمى
أنه لو كان لشفتيك مرةً
أن تحرق الهواء الخفى
وتحيله جمرات متقدة
فهكذا النفس التى تستطيع الحديث بلغة العيون
بوسعها أن تطبع قبلة عن طريق النظرات .

(٢١)

تسألينني ما الشعر

وترشقين عينيك الزرقاوين فى مقلتيا

ما الشعر ؟وأنتِ التى تسألين ؟

ما الشعر ، يا حبيبتى ، إلا أنتِ . . .

(٢٢)

كيف لا تزال تنبض بالحياة

تلك الوردة التى تضعينها إلى جوار قلبكِ ؟

لم أر قبل الآن فى هذه الدنيا

وردة تحيا إلى جوار بركان ثائر . . .

(٢٣)

لقاء نظرة من عينيكِ
أهب الدنيا وما فيها ،
ولقاء بسمة من شفتيك
سماءً بحالها ،
ولقاء قبلة منك . . .
كلا . . . ليس هناك من شيء
يعادل قبلة منكِ .

(٢٤)

لسانان حمراوان من ألسنة اللهب

ينبعان من جذع واحد

يقتربان ، ويقبّل أحدهما الآخر

فيندمجان فى شعلة واحدة .

* * *

لحنان فى عود من العيدان

تنتزعهما يد فى يوم من الأيام

ثم يتلاقيان فى الفضاء

فيتعانقان فى اتحاد وانسجام .

* * *

موجتان تسبحان معًا
لتفنيا على الشاطئ
وحين تتكسران
تتوجهما خصلة وهاجة من الفضة .

* * *

ندفتان من بخار
ترتفعان من وسط البحيرة
وحين تلتقيان هناك فى الأعالى
تتحولان إلى سحابة بيضاء .

* * *

فكرتان تنبجسان معًا
قبلتان تتفجران فى ذات اللحظة
صدى وصدى يختلط الواحد منهما بالآخر ...
هكذا هما روحانا .

(٢٥)

في هدأة الليل

حين تلتف من حولكِ

أجنحة النوم الشفافة

ويبدو جفناك المسترخيان

قوسين من الأبنوس

أهب كل ما أملك ياروحى :

النور ، والهواء ،

والعقل

لقاء أن أنصت ساعةً

إلى خفقات قلبكِ القلق

وأسند إلى صدرى

رأسكِ الذى يكلله النوم .

حين ترشقين نظراتكِ

فى شىء غامض لا يبين
وترتد منه صورة تنير بسمةً على شفتيك
أهب كل ما أرغب فيه ياروحى :
الشهرة ، والمال ،
المجد ، والعبقرية
لقاء أن أطالع على جبهتك
أفكارك التى لا أصل إليها .
والتى تعبر كسحابة البحار
فوق المياه الفضية الرحيبة .

* * *

حين ينعقد الكلام على شفتيكِ
وتتلاحق أنفاسك
وتتوهج وجنتاكِ
وتغلقين عينيك السوداوين
أهب كل آمالى ياروحى :
الإيمان ، والروح ،

الأرض ، والسماء ،
لقاء أن أرى بين أهدابك
الجذوة المتقدة
التى تنبجس من بركان الرغبة
تلتمع وتلتمع بالنيران الرطيبة .

(٢٦)

سأعترف

رغم أن ذلك ليس فى صالحى

أننى أعتقد

مثلكِ تماماً يا حبيبتى

أن القصيدة لا تكون رائعة

إلا إذا سطرت على ورقة نقدية .

لن يعدم أن يحوقل أحد الثقلاء

عند ذلك ويهتف :

"إنها على أى حال امرأة عصرية

مادية مبتذلة " .

هراء فى هراء

كلام يشيعه قلة من الشعراء

يلتحفون بالشعر فى أيام الشتاء

نباح كلاب يوجهونه للقمر فى الأعالى !

إنكِ تعلمين مثلى تمامًا

أن من يخطون الشعر عن موهبة حقيقية

أناس معدودون

أما بالذهب الأصفر الرنان

فأى شخص يمكن أن يضع شعرا

(٢٧)

وأنتِ مستيقظة

أرتعد حين أتطلع إليكِ

ولا أجرؤ أن أنظر إليك

إلا وأنتِ نائمة

ولهذا ، ياروح روحى

أبقى ساهراً حين تنامين .

* * *

تضحكين وأنت مستيقظة

وحين تضحكين

تبدو لى شفتاكِ القلقتان

بروقا قرمزية

تتلوى على سماء من الثلج .

وأنت نائمة

ينثنى فمكِ عن ابتسامة خفيفة

عذبة عذوبة الخيط المضىء

الذى تخلفه الشمس وراءها

عند الغروب ...

فلتنامى !

* * *

تتطلعين وأنتِ مستيقظة

وحينما تتطلعين

تتلألأ عيناكِ الرطيبتان

كالموجة الزرقاء

التى تجرح الشمس هامتها الوهاجة .

* * *

وأنتِ نائمة

تصبين وهجا هادئا عبر جفنيكِ

مثلما يصب المصباح الشفاف

أشعة الضوء الدفيء ...

فلتنامى !

* * *

تتحدثين وأنتِ مستيقظة

وحينما تتحدثين

تبدو كلماتكِ المتهادية

رذاذا من اللآلئ

تُهرق سيولا فى كئوس من ذهب

* * *

وأنتِ نائمة

أسمع أنفاسكِ الهامسة

منغومة رقيقة ،

قصيدة شعر تفهمها روحى المغرمة . . .

فلتنامى !

* * *

ها قد وضعتُ يدى على قلبى

حتى لا يبين عن خفقاته

ويزعج هدأة الليل الرصين .

ها قد أسدلتُ أستار شرفتكِ

حتى لا يتسلل إليها بهاء الفجر المترع

فيوقظكِ . . .

فلتنامى !

(٢٨)

حين يهمس صوت خفى

وسط الظلال العتماء الضائعة

معكراً صفو هدوئها الحزين ؛

وإذا سمعتُ رنينه العذب

فى أعماق روحى

فلتقولى لى :

أهى الرياح تشتكى لدى هبوبها

أم هى نهداتكِ

تحدثنى حديث الغرام لدى عبورها ؟

* * *

حين تلتمع الشمس فى الصباح

قانيةً فوق نافذتى

ويبتعث حبى طيفكِ ؛

وإذا ظننتُ أننى أحس

أثر شفاهٍ أخرى على شفاهى

فلتقولى لى :

أأنا أهذى فى ضلالاتى

أم هو قلبكِ يرسل لى قبلةً

فى صورة نهدة ؟

* * *

إذا كنتُ أراكِ وأشعر بك

فى النهر المتمىء

وفى أغوار الليل البهيم

وفى كل ما يحيط بالنفس التى تحبك

فلتقولى لى :

أأنا أحلم بما ألمس وأتنفس

أم أنكِ ترسلين لى أنفاسك

أترع بها فى نهدةٍ من نهداتك ؟

(٢٩)

رصعتْ الكتاب مفتوحًا
فوق ردائها
نثرت على وجنتي
خصلات شعرها السوداء .
لم يكن أحدٌ منا كما أظن
يرى حرفًا واحدًا من الكتاب
بل التزم كلانا صمتًا عميقًا .

* * *

أطال بنا الوقت هكذا ؟
لم أدر ساعتها أى شيء
كل ما أعرف
أنه لم يكن هناك صوت سوى أنفاسنا

التى طال احتباسها

فهربت من بين الشفاه الجافة .

* * *

وكل ما أعرف

أننا رفعنا رأسينا

فى نفس الوقت معًا

ورنَّت قبلةٌ فى المكان .

...

كان الكتاب مما جادت به قريحة " دانتى "

كان فصله المعنون " الجحيم "

وحين أطرقنا بأعيننا إليه

قلت لها راجفا

أتصدقين الآن

أن بيتًا واحدًا من الشعر

يمكن أن يحتوى على قصيدة كاملة ؟

وأجابتْ هى متوهجة :

أجل ، الآن أصدِّق !

(٣٠)

تصاعدت دمعةٌ إلى مآقيها

وارتسمت على شفتى عبارة غفران

ولكن الكبرياء قال كلمته

فاختنق بكاؤها

وتلاشت العبارة من على شفتى .

* * *

وسرنا كلٌ فى طريق

ولكن ...

حين أفكر فى حبنا المتبادل

أقول ولا أزال :

لماذا انعقد لسانى يومذاك ؟

وتقول هى :

لماذا لم تسل دموعى آنذاك ؟

(٣١)

كان حبنا مأساة قصيرة الأجل
جمعت حكايتها الخرقاء
بين الجد والهزل
فبعثت الضحك والبكاء على السواء .

* * *

وكان أسوأ ما فى هذه الحكاية
أن نصيبها فى نهاية الأمر
كان دموعًا وضحكات
وكانت الدموع - لا غير - من نصيبى .

(٣٢)

مرت بجمالها الخارق الفتان
فأفسحتُ لها طريقًا
ولم أدر رأسى لأنظر إليها
ورغم ذلك
سمعتُ همسًا فى أذنى يقول لى :
إنها هى .

* * *

من ذا الذى جمع الأصيل مع الصباح ؟
لا علم عندى .
أعلم فحسب
أنه فى تلك الليلة القصيرة من ليالى الصيف
اجتمع السَحر مع الشفق
وأن هذا تم على يديها .

(٣٣)

إنها مجرد كلمات
ورغم ذلك فلا أنا ولا أنتِ
سنتفق من بعد ما حدث
على من تقع التبعة .

* * *

يا للأسى !
أليس هناك من قاموس للحب
يكشف العزة حين تكون مجرد فورة
وحين تكون أمراً من أمور الكرامة ؟

(٣٤)

تتهادى فى صمت
حركاتها أنغام ساكنة
ترن خطواتها
ويعيد رنينها إلى الذاكرة
إيقاع النشيد المجنح المنغوم .

* * *

العينان نصف مفتوحتين
تلكما العينان الصافيتان كالنهار
وتتوهج الأرض والسماء
وكل ما بينهما
بضياء جديد فى مقلتيها .

* * *

تضحك
ولضحكتها لحن المياه الشاردة .
تبكى
وفى كل دمعة قصيدة من الحنان الدفاق .

* * *

الضياء والعطر ملك يديها
واللون والقوام
الصورة تُضرم الرغبة
والتعبير ينبوع من الشعر الدائم .

* * *

أينقصها الذكاء ؟
لا يهم
طالما لفها الصمت
سيكون سرها فى مأمن مكنون
فدائماً سيكون صمتها عندى
أكثر قيمة مما تقوله لى أى امرأة أخرى .

(٣٥)

لم أدهش أبداً من نسيانكِ لى
بل دهشتُ قبل ذلك يوم أحببتنى
لأن ما فى شخصى من قيمة
لا يمكنكِ أبداً أن تشعرى به .

(٣٦)

آه لو أمكن أن نجمع كل خلافاتنا
ونسطر قصتها فى كتاب
ثم ينمحى من نفسينا
كل ما نمحيه من صفحات هذا الكتاب .

* * *

مازلت أحبكِ
ولقد تركتِ فى نفسى آثاراً عميقة
حتى أنك لو بدأتِ بمحو إحدى هذه الخلافات
لانثنيتُ أنا ومحوتها كلها .

(٣٧)

سوف أرحل عن دنيانا هذه قبلما ترحلين

أحمل بين أحشائى

الخنجر الذى فتحتْ به يداكِ

جرحى العميق المميت .

* * *

سوف أرحل عن دنيانا هذه قبلما ترحلين

وسوف تقبع روحى فى جهدها العتيد

أمام أعتاب الموت

فى انتظارك .

* * *

ومع الساعات ، تمر الأيام

ومع الأيام تطير السنوات

إلى أن تطرقى ذلك الباب فى النهاية

ومن فى الدنيا لا يطرقه ... !

* * *

حينئذ

فلتحتفظ الأرض بذنوبك وخطاياك

فستغتسلين فى موجات الموت

كأنما تتطهرين فى مياه نهر الأردن .

* * *

هناك ...

حيث تجنح للموت راجفةً همسة الحياة

كأنها الموجة

تسعى نحو الشاطئ كى تلقى عنده نهايتها

هناك ...

حيث اللحد المنغلق ينفتح على أبواب الأبدية

هناك ...

يستطيع لسانانا أن يفصحا

عن كل ما اضطررنا أن نخفيه فى نفسينا .

(٣٨)

إنما النهدات خواء
ويذهبن مع الهواء
والدموع مياه
تذهب إلى البحار .
ولكن ... خبرينى يا فتاة
حين ينقضى الحب
أتعرفين أنت أيان يذهب ؟

(٣٩)

وما جدوى أن تخبرونى بذلك ؟

إنى أعرف أنها متقلبة متغطرسة ،

سطحية متقلبة ،

يمكن للمياه أن تنبثق من الصخرة الجدباء

قبل أن يتفجر الإحساس من روحها

أعرف أن قلبها عش للثعابين

ولا من وتر فيه يستجيب للهوى

وأنها تمثال لا حياة فيه

ولكن ... أواه

كم هى جميلة حسناء .

(٤٠)

يدها تحتضنها يداى

وعيناها مثبتتان على عينى

ورأسها الهائم

يستند على كتفى

يعلم الله كم من المرات

سرنا هكذا سوياً

فى خطوات متثاقلة

تحت أشجار الدردار السامقة

التى تضفى أسراراً وظلالاً

على مدخل دارها !

وأمس

ولم يكد يمر عام لا غير على ذلك

مضى كالنسمة السريعة

قالت لى

وصديق متطفل يقدمنى إليها

فى لطف عظيم

وفى رصانة جديرة بالإعجاب :

" أعتقد أننى قد سبق أن رأيتك

فى مكان ما " .

آه ! أنتم أيها البلهاء

يا من تمسون وتصبحون

متجمعين فى الصالونات

تسعون هناك

وراء قصص الهوى والغرام

لقد فاتتكم هذه القصة العجيبة !

ياله من عنقود شهى

تلتهمه الجماعة على مهل

من وراء مروحات الريش

والمراوح الذهبية .

* * *

وأنت أيها القمر الرصين الطاهر

أنت أيتها الأشجار السامقة المزهرة

ويا جدران دارها

وأعتاب بوابتها

فلتصمتى

ولا يخرج السر منكِ أبداً !

فلتصمتى

فأنا من ناحيتى

قد نسيتُ الأمر كله

أما هى . . . هى

فلا يوجد من قناع له ألف شكل

يماثل قسمات وجهها .

(٤١)

كنتِ أنت العاصفة

وأنا البرج العاتى الذى يتحدى قوتها

كان عليكِ أن تنكسرى أو أن أنهدم

فكان حبنا مستحيلاً !

* * *

كنتِ أنت المحيط

وأنا الصخرة الشامخة

التى تتلقى فى ثبات موجاته الهادرة

كان عليكِ أن تنحطمى أو أن تجرفنى الموجات

فكان حبنا مستحيلاً !

* * *

أنتِ ، جميلة

وأنا ، ذو كبرياء

حملت العادة أحدنا على الانتصار

والآخر على عدم الاستسلام

ولا مناص من الصدام

فكان حبنّا نستحيلا !

(٤٢)

حين أخبروني ما حدث

شعرتُ ببرودة نصل من الصلب يمزق أحشائى

وأسندتُ جسدى إلى الحائط

ومرت لحظات لم أشعر فيها بنفسى .

* * *

وأسدل الليل أستاره على روحى

وغمرتْ نفسى فورات الغضب والرحمة

وعندها ، فهمتُ لماذا يبكى الإنسان

وعندها ، فهمتُ لماذا يقتل الإنسان .

* * *

ومرت سحابة الألم

واستطعت أن أتمتم بمشقة عظيمة

كلمات قليلة .

من أخبرني ما حدث ؟ صديق وفى

أسدى لى معروفًا كبيراً

شكرته عليه كثيراً .

(٤٣)

ألقيت المصباح فى ركن من الأركان
وعلى طرف السرير المهدل جلستُ
صموتا ، كئيباً
وقد التصقت عيناى الساكنتان بالحائط .

* * *

لا علم لى
كم من الوقت مر علىَّ
وأنا على هذه الحال
وحين انقشعت سحابة الألم المهول عنى
انطفأ المصباح
وضحكت الشمس فى آلاف النوافذ .

* * *

ولا علم لى كذلك

فيم كنت أفكر

أو ماذا حدث لى فى تلك الساعات المخيفة

أذكر فقط أننى بكيت وصحت

وأننى فى تلك الليلة قد هرمت .

إنى أطالع أعماق عينيكِ

كأنما أطالع سِفراً مفتوحاً

ما جدوى البسمات التى ترسمينها على الشفاه

حين تكذبُ بها عيناك الحزينتان ؟

* * *

فلتذرفى الدموع

ولا يخجلنك الاعتراف بأنك أحببتنى بعض الحب

اذرفى الدموع ، فلا أحد يرانا

وها أنت ترييننى وأنا رجل أبكى وأبكى .

(٤٥)

في وسط القوس
الذى لا يكاد يثبت فى مكانه
وقد خلع الزمن حمرةً على أحجاره
ثمرة الصنعة البدائية
كان الدرع القوطى ساجيًا

* * *

وكانت اللبلابة التى تطلع حواليه
كالريش الذى ينبت من خوذة الدرع
تضفى عليه ظلالا
ترسم يدا تحمل قلبًا فى راحتها .

* * *

وتوقف كلانا
نتأمله فى الساحة المهجورة
وقالت لى : هذا الظل
هو الرمز الكامل لحبى الدائم

* * *

آه !
كان حقا واقعًا ما قالته لى آنذاك
حقا أنها ستحمل قلبها على يدها
ستحمله فى أى مكان
ما عدا صدرها .

(٤٦)

أثخنتني بالجراح
وقد غمرتها الريبة وسط الظلال
وصدَّقت على خيانتها بقبلة
طوقتْ عنقي بذراعيها
بينما هي تحطم فؤادي من الخلف
في هدوء وسكينة .

* * *

ومضت في سبيلها فرحةً سعيدة
باسمة راضية .
لماذا ؟
لأنها لم تر دماء تنبثق من جراحي ؛
لأنها شاهدت جثتي لا تزال واقفة على الأقدام .

(٤٧)

لقد أطللتُ على الذرى السامقة
والمهاوى السحيقة للسماء والأرض
ورأيت منتهاهن
إما ببصرى أو ببصيرتى
ولكن ، ويا للأسى ،
لقد وصلت إلى أغوار قلب الإنسان
وانحنيت أطل عليه
فأغشى على نفسى وعلى عينى
من فرط عمقه وظلامه .

(٤٨)

كما ينتزع الطبيب جسماً معدنياً من الجرح

انتزعت أنا حبك من بين جوانحي

وأحسست عندها

كأنما الحياة قد راحت مني .

* * *

ومن على المنبر الذي شيدته لها في روحي

ألقيت بصورتها طائعاً مختاراً

وانطفأ ضياء الإيمان

الذي كان يتقد فيها أمام المذبح المهجور .

* * *

ولكن ها هي صورتك العنيدة
تعود إلى ذهني
كيما تقاوم عزمي الصامد
آه ، متى سأستطيع أن أنام
نوماً لا تخطر لي فيه الأحلام !

(٤٩)

أصادفها أحيانًا فى دنيانا هذه

وتمر إلى جوارى

تمر باسمةً

فأسأل نفسى متعجبًا

كيف يمكنها أن تضحك ؟

وعند ذلك

ترتسم على شفتى ابتسامة

قناع من أقنعة الآلام

فأقول لنفسى

ربما كان ضحكها

من نفس نوع ضحكى الآن .

(٥٠)

كما يفعل الإنسان البدائى

حين يشكل بيديه العفويتين

إلها على هواه من جذع من الخشب

ثم يركع أمام ما صنعت يداه

هكذا فعلنا أنت وأنا .

* * *

خلعنا أشكالا حقيقية

على وهم من الأوهام

نتاجًا سخيفًا من نتاجات الخيال

وحين قام الصنم

ضحينا أمامه بحبنا .

(٥١)

أهب مما تبقى لى من حياة قصيرة

أحلى سنواتى

لقاء أن أعرف

ماذا تقولين عنى للآخرين .

* * *

وأهب تلك الحياة الفانية

وما يكون من نصيبى فى الحياة الآخرة

إذا سيكون لى فيها نصيب

لقاء أن أعرف

ما تقولين عنى

بينك وبين نفسك .

(٥٢)

أنت أيتها الموجات الهائلة

يا من تهدرين متكسرة على الشطآن المهجورة القصية

اطوينى بين رقائق الزبَد

وخذينى معك !

* * *

أنت أيتها العواصف العاتية

يا من تنتزعين الأوراق الذابلة من الأشجار السامقة

اسحبينى فى ثنايا دوامتك العمياء

وخذينى معك !

* * *

أنت أيتها السحب العاصفة

يا من تكسرها الصاعقة فتزدان حواشيها بأهداب من نار

اطوينى بين ظلمات الغمام

وخذينى معك !

* * *

أشفقى عليَّ وخذينى

إلى حيث تنتزعنى الدوامة والحجى من ذكرياتى

أشفقى عليَّ

فأنا أخاف أن أبقى وحيداً مع آلامى .

(٥٣)

مرة أخرى

ستبنى البلابل السمراء أعشاشها على نافذتكِ

وستضرب الزجاج بأجنحتها وهى تلهو

مرة أخرى

ولكن تلك البلابل

التى كانت تتأنى فى طيرانها

كيما تتأمل جمالك وتطالع سعادتى

تلك البلابل التى عرفت اسمينا ...

هذه ... لن تعود أبداً .

* * *

مرة أخرى

سيلتف اللبلاب الوارف على سياج حديقتكِ

وستتفتح نواراته فى الأصائل فائقة البهاء
مرة أخرى
ولكن ذلك اللبلاب الذى يتوجه الندى
حين كنا نرقب قطراته ترجف ثم تتساقط
كأنها دموع النهار ...
هذه ... لن تعود أبداً .

* * *

مرة أخرى
ستطرق كلمات الغرام الجارفة أذنيكِ
وربما توقظ فؤادك من سباته العميق
ولكن ... لا تخدعى نفسك
فالصورة التى أحببتك بها دوماً
فى صمت ، وتفان ، وضراعة
كما يتعبد الناس لله فى صلاتهم ...
لن يحبكِ أحد بها بعد ذلك أبداً .

(٥٤)

حين نعود إلى ابتعاث ساعات الماضى المارقة
تتلألأ بين جفنيك السوداوين
دمعة راجفة توشك على السقوط .

* * *

وتسقط آخر الأمر
تسقط كأنما هى قطرة ندى
حين ندرك
أننا قد نشتاق إلى اليوم غداً
كما نشتاق اليوم إلى أمس !

(٥٥)

وسط صخب الحفل المتنافر

هدهد سمعي

صدى نهدة من النهدات

تتهادى كلحن موسيقى بعيد .

* * *

صدى نهدة أعرفها حق المعرفة

أطلقتْها أنفاسٌ قد نهِلتُ منها

عطر زهور مكنونة

تنمو وسط رواق معبد مظلم .

* * *

قالت لى من كنتُ أعبدها يومًا
فى رقة وحنان :
فيم تفكر ؟
- لا شىء
- لا شىء وتبكى ؟
أبكى لأن حزنى بهيج ، وفرحى حزين .

(٥٦)

يومنا كأمسنا ، وغدنا مثل يومنا

وكل شيء يمضي على وتيرة واحدة

سماء غائمة ،وأفق لا نهاية له

وما علينا إلا أن نسير ... ونسير .

* * *

والفؤاد

يهتز على الوتيرة

كأنما هو آلة حمقاء

والفكر المتثاقل

يغفو في ركن من أركان العقل .

* * *

والنفس التى تطمح إلى الفردوس
وتنشده دون إيمان
ترهق نفسها بلا غاية
كالموجة تلف وتدور دون أن تعرف لمه .

* * *

صوت يغنى أغنية واحدة
بنغمة واحدة ، دونما توقف .
نقطة ماء رتيبة
تسقط وتسقط ، دونما توقف .

* * *

هكذا تنزلق الأيام
يوماً وراء يوم
اليوم مثل الأمس
وكلها تمر دونما بهجة ودونما ألم .

* * *

آه ، أحيانًا أتذكر

آلامى القديمة وأنا أتنهد

مرير هو الألم

ولكن

ربما كان جوهر الحياة فى ذلك الألم .

(٥٧)

جسدى هذا
أصبح جلداً وعظاماً فحسب
قد هده التعب فى النهاية
من الرأس المجنون الذى يحمله .
ولا عجب فى هذا
رغم أن سنوات عمرى
لا تضعنى فى مصاف الشيوخ .

* * *

فى طريق حياتى التى خطها لى القدر
على هذه الأرض
كان كل ما لقيته يعود علىَّ بالسوء
حتى إننى أقسم
أننى قد عشت قرناً فى كل يوم .

وهكذا لو متُّ الآن

لما أنكرت أننى قد عشت حياتى كاملةً

فرغم أن الثوب يبدو جديداً فى خارجه

فإننى أعرف تماماً أننى قد هرمت فى داخلى .

* * *

قد هرمت ، أجل

ورغما من نصيبى ذاك

فإن أشواقى الأسيانة

لا تكلُّ من القول

إن من الآلام ما يحفر فى مساره

آثاراً هائلة فى الفؤاد

دون أن يظهر منها شىء على الجبين .

(٥٨)

هل تريدين أن تجتنبى شعور المرارة

الذى يكمن فى هذا الكأس المترع بلذيذ الشراب ؟

إذن فلتتنسمى عبيره

ولتقربيه من شفتيك

ثم اطرحيه عنكِ بعد ذلك .

* * *

هل تريدين أن نحتفظ من حبنا هذا

بذكرى عذبة لطيفة ؟

إذن فلنشرب كئوس الغرام اليوم مترعةً

ثم ليودع أحدنا الآخر من فورنا فى الغداة .

(٥٩)

إننى أعرف حق المعرفة
سبب نهداتك المتلاحقة
وأدرى تماماً
ما وراء تكاسلك الخفى العذب
أتضحكين ... ؟
ستعرفين يوماً يا فتاتى سر ضحكتك
ربما تخمنين السبب
ولكنى أنا أعرفه حتماً .

* * *

أعرف متى تحلمين
وماذا ترين فى أحلامك
وما تخفينه عنى
بوسعى أن أطالع صفحاته على جبينك

أتضحكين ... ؟

ستعرفين يومًا يا فتاتى سر ضحكتك .

ربما تخمنين السبب

ولكننى أنا أعرفه حتمًا .

* * *

إنى أعرف لماذا تبسمين

وتبكين فى آن واحد

إنى أخترق الحجب الخفية

لروحك الأنثوية

أتضحكين ... ؟

ستعرفين يومًا يا فتاتى سر ضحكتك

فطالما تضطرم فيك المشاعر المتباينة

ولا تعرفين شيئًا

فسأعرف كل شىء

أنا الذى لا أشعر بشىء .

(٦٠)

مَثَل حياتى كمَثَل حقل مجدب

أو زهرة تتساقط أوراقها عند لمسها

ففى طريقى الهلوك

ثمة من يزرع الشوك

ومكتوب لى أن أحصده أنا .

(٦١)

من يا ترى

سيجلس إلى جوارِ فراشي

ليرقب ساعات الأرق المحمومة

تمر عليَّ في بطء ؟

* * *

وحين أمد يدى المرتعشة

التى قارب وهجها على الانطفاء

بحثًا عن يد حنون

من يا ترى سيمد لى يده ؟

* * *

وحين يسدل الموت

ستاراً من الزجاج على عينى

وجفناى لا يزالان مفتوحين

من يا ترى سيغلقهما ؟

* * *

وحين تدق الأجراس

لو أنها دقت فى جنازى

من يا ترى سيغمغم عندها

بصلاة على روحى ؟

* * *

وحين تغطى الأرض بقاياى الشاحبة

وتضمها بين جنبيها

من يا ترى سيأتى يوماً

ليبكى عند قبرى الموحش ؟

* * *

وحين تعود الشمس تلتمع

بعد ذلك بأيام

من يا ترى سيذكر فى نهاية الأمر

أننى عشت يوماً فى هذه الدنيا ؟

(٦٢)

تبدأ بلْجةً راجفة غامضة أول الأمر ، ..
شعاع من نور قلق يفلق البحر
ثم تومض بعد ذلك وتنمو وتنتشر
فى تفجر وهاج من الضياء .

* * *

النور الملتمع هو الفرحة
والظلمة الوجلة هى الأسى
آه ... متى ينبلج الفجر
فى ليل روحى الدامس ؟

(٦٣)

تنبجس ذكريات الساعة الماضية وتطاردنى

من أركان الذاكرة المعتمة

كأنما هى سرب من النحلات الثائرات .

* * *

أريد أن أهرب من ذكرياتى

ولكنه جهد ضائع !

فهى تحيط بى وتلح علىَّ

وتترى الواحدة منها وراء الأخرى

لترشق فىَّ حرابها المسنونة

وتفتح جراح روحى الفاغرة .

(٦٤)

كنت أصون آلامى

كما يصون البخيل كنوزه

فى رغبتى أن أبرهن على أن ثمة شيئًا أبديًا

لتلك التى أقسمت لى على حبها الأبدى .

* * *

ولكن ...

ها أنا اليوم أنادى عبثًا أيامى

وأسمع الزمن الذى استنفدته يهتف بى :

آه أيها الثَرىَ البائس

لن تتذوق طعم الأبدية أبداً

حتى ولو كانت أبدية الألم !

(٦٥)

أسدل الليل أستاره
ولم أجد لي ملاذًا
كنت عطِشًا
فشربت من دموعى
وكنت مسغبًا
فأغلقت عينىَّ المتورمتين
كيما أموت !

* * *

أكنت أحيا فى صحراء ؟
بل كان يصل إلى سمعى
لغط الناسِ وهمهماتهم
كنت يتيمًا مسغبًا
لذلك كانت الدنيا فى عينى
صحراء مهجورة .

(٦٦)

من أين جئتُ ؟
فلتبحث عن الدروب الوعرة المخيفة
ولتنظر آثار أقدام دامية على الصخور الصلدة
وما تبقى من نفس صارت مزقًا بين الأشواك الحادة
كل هذا سيدلك على الطريق الذى يفضى إلى مهدى .

* * *

إلى أين أمضى ؟
عليك أن تعبر صحراء لا أظلم ولا أتعس منها
وواديًا من ثلوج لا تذوب وضباب لا ينقشع
حيث ثمة لوح مهجور بلا نقش ولا كتابة
حيث يقعى النسيان
هناك سوف تجد قبرى .

(٦٧)

كم هو جميل
أن نشهد النهار وهو ينهض
تتوجه شعلة من النيران
ثم تلتمع الموجات على قبلته المضيئة
ويشتعل الهواء فى كل مكان .

* * *

كم هو جميل
بعد أمطار الخريف الحزين فى الأصيل الأزرق
أن يصًاعد عطر الزهور الرطيبة
ويملأ الدنيا بهاء وجمالاً .

* * *

كم هو جميل
حين تسقط ندف الثلج الأبيض فى صمت
أن نرى الألسنة الحمراء تتوهج
من شعلات النيران المضطرمة .

* * *

كم هو جميل
حين نأوى إلى مخادعنا
أن ننام نومًا عميقًا
ويتصاعد غطيطنا كجوقة المنشدين
وأن نأكل ، وأن نسمن . . .
ولكن ، واأسفاه
أن هذا كله
لا يكفى وحده
كى يحقق وجودنا .

(٦٨)

لا أذكر بم حلمتُ الليلة الماضية
ولكن لابد أنه كان حلمًا حزِينًا
جد حزين
فقد استيقظت ومازال الشجن يغمر روحى .

* * *

وجدت بعد أن صحوت
رطيبة هى وسادتى
وحين اكتشفت ذلك
شعرت لأول مرة
بلذة مريرة تترع روحى
شىء حزين هو الحلم الذى ينتزع منا النحيب
ولكنى أشعر بالبهجة فى حزنى ذاك
فهو يذكرنى بأنه مازالت فى الدموع بقية .

(٦٩)

إننا نولد مع ومضة برق
لا تكاد تتوهج حتى يطوينا الموت
فلشد ما هى الحياة قصيرة !

* * *

والمجد والحب اللذان نسعى وراءهما
إن هما إلا أضغاث أحلام نطاردها
واليقظة تأتى مع الموت !

(٧٠)

كم من المرات
استمعتُ إلى دقات النواقيس
تدعو الناس لصلاة منتصف الليل
وأنا بين الجدران المغطاة بالأعشاب الفطرية
التى تقوم على حراستها .

* * *

كم من المرات
أحاط القمر الفضى
بطيفى الحزين
وأنا إلى جوار شجرة الصفصاف
التى تطل على بستانها
من وراء الأسوار .

* * *

كم من المرات
حين تلف الظلال الكنيسة
رأيتُ وهج المصباح يرتجف
فوق زجاج قوسها المقعى .

* * *

بل وحين تصفر الرياح
فى زوايا البرج المظلمة
فإنى أحس بين أصوات المنشدين
صوتها الدوَّار الصافى .

* * *

وفى ليالى الشتاء
لو جرؤ أحد على عبور الميدان المهجور
لأسرع فى خطاه من الخوف
عند رؤيته إياى هناك .

* * *

ولن يعدم الأمر
أن تذكر إحدى العجائز
أنني ربما كنت
روح أحد القساوسة الخطاة .

* * *

كنت أعرف جيداً فى الظلمة
أركان الردهة والمدخل
وربما لا تزال النباتات هناك
تحتفظ بآثار أقدامى فوقها .

* * *

والبوم الذى كان يلاحقنى فى فزعٍ
بعيونه التى يتطاير منها الشرر
أخذ يعتبرنى فى نهاية المطاف
زميلاً أصيلاً له .

* * *

والزواحف إلى جوارى
يتحركن هنا وهناك دونما وجل
بل وحتى تماثيل القديسين الخرساء
كنت أشعر أنها تُقرئنى التحايا !

(٧١)

لم أنم
بل سبحتُ فى عالم الأرواح الحقة
حيث تتخذ الأشياء صوراً أخرى
عوالم خفية
تفصل اليقظة عن دنيا الرقاد .

* * *

وشيئًا فشيئًا
أخذت الأفكار
التى كانت تلف وتدور حول عقلى
فى حلقة صامتة
تتحرك فى رقصها
بإيقاع أكثر بطئًا

كانت الجفون تهدهد

ظلال النور

التى تتسلل إلى الروح عن طريق العيون

غير أن عالم الرؤى

كان ينير دواخلى بنور آخر .

* * *

وفى تلك اللحظة

رنت فى مسامعى

همهمة تشابه تلك التى تسرى فى غموض

فى أروقة الكنيسة

حين يُنهى المصلون صلواتهم بكلمة آمين .

* * *

وبدا كما لو أن صوتًا حادًا حزينًا

يهتف باسمى من أقصى البعاد

وشممت رائحة شموع منطفئة
رائحة رطوبة ورائحة بخور .

* * *

...
وأسدل الليل أستاره
وسقطتُ بين ذراعيْ النسيان
كالحجر ، فى عالمه العميق
ونمت ، ثم صحت عند استيقاظى :
" لقد مات أحد أحبابى ! "

(٧٢)

الصوت الأول :

- الموجات تزهو بالأنغام الغامضة
والبنفسجات بالعطر العذب
الليل البارد يغطيه غمام من فضة
والنهار ينتشر بالضياء والنضار
أما أنا فأزهو بما يفضل هذا وذاك
فأنا عندى " الحب " .

الصوت الثانى :

- هالة من الاستحسان
سحابة مشرقة
موجة من الحسد تقبِّل القدمين
جزيرة من الأحلام

تستريح عندها الروح القلقة

ثمالة عذبة

إنه " المجد " .

الصوت الثالث :

- وهج مشتعل هى الثروة

والزهو ما هو إلا طيف آبق

المجد ، الذهب ، كل ذلك قبض الريح

ولكن ما أعبده أنا حق العبادة

هو " الحرية " .

* * *

هكذا كان النوتية

ينشدون تلك الأهازيج الخالدة

وهم يمرون بمركبهم

وعلى ضربات المجداف
يتناثر الزَبَد
ويجرح عين الشمس .

* * *

هتفوا بى : ألا تصعد إلى المركب ؟
فقلت لهم باسما وهم يعبرون :
" لقد فعلت ، لقد فعلت حقًا
وقد نشرت الآن ملابسى
لتجف على الشاطئ " .

(٧٣)

أغلقوا عينيها

بعد أن كانتا مفتوحتين

وغطوا وجهها بقماش أبيض

وخرج الجميع من الغرفة الحزينة

البعض يجهش باكيًا

وآخرون صامتون .

* * *

وعكست نيران المدفأة

التى تتوقد فى الحجرة

ظل سرير الموت على الحائط

ومن خلال ذلك الظل

كانت تتبدى أحيانًا

صورة الجسد اليابس .

وطلع النهار

ومع بلجته الأولى

استيقظ الناس

بصخبهم المألوف

وتفكرتُ لحظةً

أمام هذه المفارقة

من النور والضباب :

" يا إلهى

كم وحيدون هم الموتى ! "

* * *

وحملوها من المنزل على الأكتاف

إلى الكنيسة

وتركوا النعش فى زاوية

وهناك

أحاطوا جثتها الشاحبة

بالشموع الصفراء
والأقمشة السوداء .

* * *

وحين دقت ساعة الرحيل
أنهت عجوز صلاتها الأخيرة
وعبرت الردهة الرحيبة
وانغلقت الأبواب وهى تئز
وأصبح المكان القدسى مهجوراً .

* * *

كان بندول الساعات
يوقع دقاته فى رتابة ،
وبعض الشموع
تئز منها النيران
كان كل شىء
خجولاً حزيناً

مظلمًا يابسًا
حتى جال فى خاطرى لحظةً :
" يا إلهى
كم وحيدون هم الموتى ! "

* * *

ومن الناقوس المرتفع
دار اللسان الحديدى
وقرع لحن الوداع فى أسى
ومر الأصدقاء والأقرباء
فى صف مشتمَلين بالسواد
يشيعون الموكب الحزين

* * *

وفتح المعول
محراب المثوى الأخير على مصراعيه
مظلمًا ضيقًا

وهناك أودعوها

ثم غطوها بعد ذلك

وتفرق المشيعون

بعد تبادل التحيات

* * *

ومضى اللحاد بعيداً

ومعوله على كتفه

وهو يغنى فى خفوت

وهبط الليل

وساد الصمت .

وتفكرتُ لحظةً

وأنا ضائع فى الظلال :

" يا إلهى

كم وحيدون هم الموتى ! "

* * *

وفى ليالى الشتاء

الطويلة المثلوجة

حين تعصف الرياح

وتسوط الأمطار الهاطلة

زجاج النوافذ

تعود إلى ذاكرتى

صورة الفتاة المسكينة الوحيدة .

تتساقط الأمطار هناك

بإيقاع أبدى

وهى هناك

تصارع لفحات ريح الشمال

راقدة فى فجوة

من الحائط الرطيب

ربما تثلجت عظامها

من شدة البرد !

* * *

هل يعود التراب إلى التراب ؟

هل تطير الروح إلى السماء

أكل شيء مادة مهينة

عفن وطين ؟

لا أدرى .

ولكن هناك شيئًا

لا أدرى له تفسيراً

وهو ذلك الشعور الدفين

الذى يصيبنا بالنفور والحزن

إذ نترك الموتى هكذا

جد حزانى ، جد وحيدين .

(٧٤)

كانت مهدلة الثياب

عارية الظهر

وثمة ملاكان يحرسانها

على طرف الباب الذهبى

* * *

ودنوتُ من الأسوار الحديدية

التى تحرس المدخل

وفى الخلفية

من خلال المشربيات المزدوجة

رأيتها ... مضطربة ... ناصعة .

* * *

رأيتها
كأنما هى طيف يعبر فى لطيف الأحلام
كأنما هى ضياء برق رقيق رحيب
يسبح فيما بين الغمام

* * *

شعرتُ بروحى
تسوقها رغبة حارقة
وكما تنادى الهاوية من يطل عليها
جرفنى نحوه ذلك السر الغامض .

* * *

ولكن ، واأسفاه
بدت نظرات الملاكين كأنما تقول لى
" لا يدخل من عتبة هذا الباب
سوى الله جل جلاله " .

(٧٥)

أحقا يكون
حين يمس النوم أعيننا
بأصابعه الوردية
تهرع الروحٍ هاربة من سجنها
وتطير بعيداً ؟

* * *

أحقا يكون
أنها تصبح فى ضيافة الغمام
وأنها تستعير من نسمة المساء
والرياح الرقيقة أجنحةً
تصعد بها إِلى السماوات العلى
لتلتقى بغيرها من الأرواح ؟

* * *

وأنها هناك

تتعرى من صورتها الإنسانية

هناك

حيث تنحطم الروابط الأرضية

تقيم ساعات قصيرة

فى عالم الفكر الصامت ؟

* * *

وأنها تضحك وتبكى

وتكره وتحب

وتحتفظ بذكريات من الحزن والسرور

كالتى يخلِّفها وراءه

شهاب ثاقب حين يمر عبر السماء ؟

* * *

أنا لا علم لى

إذا كان عالم الرؤى هذا

يعيش خارجنا

أم أنه يخطو إلى داخلنا

ولكننى أعلم علم اليقين

أننى أعرف أناساً كثيرين

ممن لم أعرفهم أبداً فى حياتى !

(٧٦)

وسط رواق الكنيسة البيزنطية الفخيم
تطلعت إلى القبر القوطى
على وهج النور الواهى
الذى يرجف على زجاج النوافذ الملون .

* * *

كانت امرأة تستريح
فوق أحد التوابيت
أعجوبة من أعاجيب النحت
يداها على صدرها
وكتاب فى يدها .

* * *

واستسلم فراشها الحجرى

لثقل الجسد الوحيد العذب العميق

كأنما هو مجبول من ريش النعام ومن الحرير .

* * *

كان وجهها

يحتفظ ببهاء ابتسامتها الإلهية الأخيرة

كما تحتفظ السماء

بشعاع الشمس الغاربة الآبق .

* * *

كان ثمة ملاكان

يقبعان على طرف الوسادة الحجرية

إصبعيهما على الشفاه

يفرضان الصمت فى كل الأنحاء

* * *

لم يكن يبدو عليها سمة الموت
بل بدت كأنما هى غافية
تحت ظلال الأقواس المطعمة بالذهب
وأنها ترى الفردوس فى أحلامها .

* * *

ودنوتُ بخطواتٍ صموت
من جانب الرواق المظلم
كأنما أدنو من مهد ينام فيه طفل .

* * *

وتأملتها ساعةً
ذلك البهاء الدفىء
ذلك الفراش الحجرى
الذى يشغل فراغًا إلى جوار الحائط
أنعش فى روحى
الظمأ إلى المطلق

الشوق إلى حياة الموت
التى تبين فيها الدهور فى لحظة واحدة .

* * *

وأحيانًا
حين يصيبنى الكلل
من حياة الصراع الذى أعيش فيه
أتذكر فى حسد
ذلك الركن الخبئ المظلم .

* * *

أتذكر تلك المرأة الصامتة الشاحبة
وأقول
آه ، ياله من حب صموت
هو حب الموت
وياله من نوم هادئ
هو نوم الموت .

(٧٧)

تزعمين أن لك قلبًا

وما ذلك إلا لأنك تشعرين بدقاته .

ليس قلبًا هذا

إنما هو آلة

تصدر أصواتًا مع إيقاع حركاتها !

(٧٨)

يمضى الأمل من أمام الرغبة
متوهما الحقيقة فى أطياف الغرور
وتتولد أكاذيبه
كما تتولد العنقاء
مما تخلّفه من رماد .

(٧٩)

يدفع الريح أمامه
زهوراً كسيرة وأوراقًا ذابلة
ويردد الصدى
نواحات حزينة فى الفضاء الرحيب .

* * *

وسط غمام الماضى
فى قطاعات الفكر
ما ذكرياتى
سوى نواحات حزينة
ومسرات ذابلة .

(٨٠)

امرأة سممتْ روحى

وأخرى سممت جسدى

ولم تأت أىٌّ منهما تخفف عنى

ولكنى لا أحمل ضغينة لأىٍ منهما .

* * *

ولما كانت الأرض كروية

فالدنيا تدور

وإذا دارت غداً

ونقلت هذا السم إلى الآخرين

فما ذنبى أنا ؟

أينضح الإناء بغير ما فيه ؟

(٨١)

ما الفجر إلا طيف ابتسامتك
وما نور النهار سوى بريق عينيكِ ؛
ولكنْ لكِ نفس مظلمة باردة
كأنما هى ليلة من ليالى الشتاء .

(٨٢)

مضيت أهتف وأنا أهيم فى الدنيا
أين أنت أيها المجد ؟
وأجابنى صوت خفى :
بعيداً ، بعيداً .

* * *

وسرت بعيداً
فى الدرب الذى خطه لى الصوت المجهول
ووجدت المجد فى النهاية
ولكنه استحال فى نفس اللحظة
إلى دخان غائم .

* * *

واتخذ الدخان شكل نقاب كثيف
أخذ يصَّاعد إلى أعلى
ثم اخترق الصفحة الزرقاء
كيما يصل فى النهاية إلى السماء .

(٨٣)

الأشباح السوداء

والسحائب السود

يهربن

أمام بريق الضياء الإلهى .

ذلك الضياء القدسى .

يا فتاتى يا ذات العيون السوداء

هو " الأمل " .

* * *

ويصارع إيمانى الجارف

على حرارة أشعته

بدون هوادة

ضد كل هذا الازدراء

وفى هذا الكفاح
كلما عظمت المشقة
عظمت الثمرة .

* * *

ولو أبديتِ لى بعد ذلك
أيتها المزدرية
نفساً من الجليد
لو لم تحبينى بعد ذلك
فلا أملك إلا أن أستمر فى حبك
فحبى صخرة
تتكسر عليها فى وجل
موجات البحار .

(٨٤)

الحب

إنى أنا البريق ، النسمة العذبة ،
الدمعة الحارقة ، البسمة الناضرة ،
الزهرة الفوّاحة ، الْفَنَنُ المبتور ،
أنا هو من يطلق
سهامًا من الصلب .

* * *

فى جوهرى ألف عطر عذب
كما فى الأزاهير
وشذاى الفتان
يعذب الروح التى تتعبد فى محرابى .

أنا أوزع عطورى فى كل مكان
وأخفف من قسوة الآلام
وأحيل العذابات القاسية الجافة
رؤى لطيفة ، عذبة ، حانية .

* * *

أواه !
إنى أقيِّد من حرية القلوب
لكن أغلالى إنما هى من زهور
أبحر فى البحار
وأطير مع الرياح
أزيل أشجان الفكر
أوزع على بنى البشر
السعادة أو الشقاء
بوجه رصينة ملامحه
قوة هائلة
تنبت من رغباتى

إما البسمة وإما الدموع
قوة تلهب الروح الباردة
لو أطلقتُ عليها غاضباً
سهماً من الصلب .

* * *

أخلع تلك البسمة العذبة على شفاه الغيد الحسان
وأصيغ وجناتهن بالثلج المعجون بالورود الناضرة
أرضب شفاههن
وفى عيونهن
أرسم وعود السعادة الغامرة .
أنا من يخلع على الراحة رواءً وبهاءً
أو يقصى النوم الهنىء من أعين الناس .

* * *

الكل يسلِّم بسطوتى
والكل يرفع إلى عرشى قرابينه

أنا " الحب " ، ملك الدنيا

فلتحبيني أيتها الفتاة القاسية

تصبحي ملكةً في اليوم التالي !

(٨٥)

ألم تسمعى مرة فى الليل
حين تسود الظلمة كل شىء
صوتًا منطفئًا يغنى
وحزنًا غامرًا يبكى ؟

* * *

ألم تشعرى فى مسامعك العذراوية
بالنغمات الهادئة الأسيانة
التى كانت أصابعى الميتة
تنتزعها من القيثارة المحطومة ؟

* * *

ألم تشعرى بقطرة من دموعى
تنساب فى فمك ؟
ألم تشعرى بيدى المثلوجة
تصافح يدك الناضرة ؟

* * *

ألم تشاهدى فى أحلامك
طيفًا يسرى فى الهواء ؟
ألم تشعر شفتاك بقبلة
تصطفق فى الغرفة فى خفاء ؟

* * *

ها أنا أقسم بحياتى ، يا حياتى
أننى أحسستُ بك وجلة خائفة بين ذراعى
وأننى شعرت بأنفاسك الياسمينية
وشفتيك ملتصقة بفمى !

(٨٦)

لقد آويت إلى ملاذ امرأة
أنشد عندها الحب
كأنما أنا ملاح تائه
وما كان حبها إلا ملالا لحواسى
وثلجًا لفؤادى .

* * *

وأصبح حالى فى حياتى
من بعد عالم الآمال الذى عمرتُه أمس
كحال الشريد وسط الصحراء
وجها لوجه مع خالقه !

(٨٧)

آه لو أصبح قمراً
آه لو أصبح نسمة
آه لو أصبح شمساً !

* * *

آه لو أصبح
الساعة التى ينسدل فيها الشفق ؛
آه لو أصبح
نبضة من نبضات قلبك ؛
أه لو أصبح
جزءاً من الابتهالات
التى ترفعينها فى عزلتكِ
إلى الله العلى القدير !

آه لو أصبح قمراً
آه لو أصبح نسمة
آه لو أصبح شمساً !

(٨٨)

فى الليل

مائلاً بجبينى الوهاج
على زجاج النافذة البارد
لم تفارق عيناى لحظة واحدة
شرفتها وسط الليل البهيم .

* * *

وفى وسط الظلال الخفية
أشرق زجاج نافذتها بالأنوار
وسمح لبصرى
أن يخترق محراب غرفتها الطاهر .

* * *

كان وجهها شاحباً كالمرمر
وشعرها الأشقر محلول الضفائر
تتحسس موجاتهُ الحريرية
كتفيها المرمريتين ونهديها .

* * *

أبصرتها عيناى
شبه عارية جميلة لا تبالى
جمال تمثال كلاسيكى
وتكدرت عيناى
لمرأى كل هذا الجمال .

* * *

تطلعت إلى المرآة
وابتسمت فى طراوة لصورتها الجميلة
ثم جادت عليها بقبلة عذبة
ثمناً لإطراءاتها الخرساء .

ولكن النور انطفأ

واختفت الرؤيا الصافية

كالطيف العابر

ورحت فى النوم

والغيرة تنهشنى

من المرآة التى فازت بقبلة منها .

(٨٩)

لو أدنيت جبينك
من مجرى النهر القريب الرقراق
وتطلعتِ إلى وجهكِ الذى يضويه الغرام
فإنه أنا الذى أختبئ
فى غور المياه وأعماقها
أدعوكِ وقد ملأنى الحب جنونًا
للغرام .
إنه أنا
أبحث عن مستقر لى فى صدركِ
وأطلق إلى عينيك نظراتى الملتهبة
وشعلتى المقدسة
والنار التى أحس بها تضىء وجيك .

* * *

لو تعثرت خطاك السريعة وتغيرتْ

في وسط الوادى

واهتز جسدك ، وانثنى جذعكِ

فإنه أنا

أيتها الحبيبة

دونما أى روابط منظورة

وقد أضنانى الغرام

أضمكِ إلى أحضانى .

إنه أنا

من يحيك لكِ البساط المزهر

الذى يعيد القوة والحياة إلى جسدكِ

إنه أنا

أتبعك على أجنحة الرياح

كيما أحلم إلى جوارك .

* * *

لو حدث أن سمعت

وأنت ممددة على فراشك

أنغاماً سماوية

تملأ صدرك الحبيب بالبهجة

فإنه أنا يا حياتى

إنه أنا

أرفع إلى السماء الهادئة

نشيدى المحموم

إنه أنا

إذ تعبر الألحان فى خفة

خلال درب متنقل مجهول

أنا الذى أتلهف للهدوء

ظامئ للغرام

أتسلل إلى روحك.

(٩٠)

الحياة حلم

ما الحياة إلا حلم
ولكنه حلم محموم
لا يدوم سوى ثانية
وحين نستيقظ منه
نرى كل شيء غروراً ودخاناً . . .

* * *

آه لو أنه كان حلماً طويلا عميقا
حلماً يدوم حتى الموت !
إذن لحلمت دوماً بحبي وحبك .

(٩١)

الحب الخالد

يمكن للسحب أن تغطى وجه الشمس إلى الأبد
ويمكن للبحر أن يجف فى لحظة واحدة
ويمكن لعمود الأرض أن ينحطم
كأنما هو زجاج هش .

* * *

يمكن أن يحدث أى شىء
ويمكن للموت أن يمد لى منجله الهلوك
ولكن ... أبداً فى قلبى
لن تنطفئ شعلة حبك العظيم !

(٩٢)

إلى "كاستا "

أنفاسك أنفاس الزهور
وصوتك نغم من أغاريد البلابل
نظراتك هى بهاء النهار
ولونك لون الورود

* * *

إنك تنفثين حياة وأملا جديدين
فى فؤاد قد مات منه الحب
إنك تنمين وسط صحراء حياتى
كما تنمو الزهرة وسط البرية .

(٩٣)

إلـى إليـزا

أنا إنما أسطر أشعارى
كيما تقرئينها بعينيك الرماديتين
وحتى يشدو بها صوتك الصافى
ولكى تفعم صدرك بالمشاعر والأحاسيس .

* * *

أنا إنما أسطر أشعارى
كيما تجد ملاذاً ومأوى فى صدرك
وتضفى عليها من شبابك وحياتك وحرارتك
ثلاثة أشياء لا أستطيع لها منحاً .

* * *

أنا إنما أكتب أشعارى
كيما أجعلك تتمتعين ببهجتى
وحتى أجعلك تقاسين آلامى
ولكى أجعلك تشعرين بنبض حياتى .

* * *

أنا إنما أكتب أشعارى
كيما أستطيع أن أرفع إلى زهورك
قرابين حياتى وحبى
بروحى ....
بأحلامى المحطوسة ،
بالضحكات ... وبالدموع .

(٩٤)

إلى جميع القديسين
(ذكرى أول نوفمبر)

أنتم أيها القديسون
يا من زرعتم بذرة شجرة الإيمان
فى القرون الغابرة
توجهوا إلى من قهر الموت
وتضرعوا إليه من أجلنا .

* * *

أنتم أيها المرسلون
يا من عبرتم فى إلهاماتكم
أستار المستقبل الخفية
توجهوا إلى من استخلص النور من الظلام
وتضرعوا إليه من أجلنا .

أنتم أيتها الأرواح الطيبة

أيها القديسون الطاهرون

يا من تغنون الآن مع الملائكة فى السماء

توجهوا إلى من دعا الأطفال إلى جواره

وتضرعوا إليه من أجلنا .

* * *

أنتم أيها الحواريون

يا من أرسيتم أساس الدين فى الدنيا

توجهوا إلى مالك الحق

وتضرعوا إليه من أجلنا .

* * *

أنتم أيها الشهداء

يا من كتبتم سطور مجدكم بالدم الأحمر

فوق رمال حلبات الموت

توجهوا إلى من منحكم الصبر على الصراع
وتضرعوا إليه من أجلنا .

* * *

أنتن أيتها العذارى شبيهات السوسن
يا من خلع عليكن الصيف
حللا من ثلج ومن ذهب
توجهوا إلى نبع الحياة والجمال
وتضرعوا إليه من أجلنا .

* * *

أنتم أيها الكهنة
يا من نشدتم السلام بين الأروقة الصموتة
بعيداً عن حياة الصراع
توجهوا إلى من هو زهرة السلام وسط العواصف
وتضرعوا إليه من أجلنا .

* * *

أنتم أيها العلماء

يا من خلَّفت لنا أقلامكم

كنوزاً ثرية من العرفان والفضائل

توجهوا إلى من هو فيض العرفان الذى لا نهاية له

وتضرعوا إليه من أجلنا .

* * *

أنتم يا جنود الله

يا جميع القديسات والقديسين.

تضرعوا إليه كى يغفر لنا خطايانا

إليه ... من يعيش ويحكم بيننا .

(٩٥)

قطرة الندى

قطرة الندى
تلك التى ترقد فى كأس السوسنة البيضاء
هى ذلك القصر البللورى
الذى يعيش فيه
ذلك الجنى السعيد الهانئ .

* * *

هو يعطيها من أسراره ومن قصائده
وهى تضفى عليه من عطرها البلسمى
واهاً لتلك الزهرة
لو أن تلك اللؤلؤة تتبخر
على نار القبلة المتبادلة .

من ألبوم السيدة

وحيدة ... حزينة ... خرساء

ترقد تلك المقبرة ..

سكانها لا يعرفون البكاء ...

آه ... كم سعداء هم الموتى !

المؤلف فى سطور

جوستافو أدولفو بِكِر

يعتبر هذا الشاعر النظير الإسبانى للشعراء الرومانسيين الذين عاشوا فى أوروبا فى القرن التاسع عشر ، مثل بايرون وشللى وكيتس فى إنجلترا ، ولامارتين وشاتوبريان وموسيه فى فرنسا ، وهولدرلين ونوڤاليس وهاينى فى ألمانيا . وقد عاش بِكِر فى إشبيليه وتأثر بالجو الأندلسى الذى كان – ولم يزل – تتبدى آثاره فى جنوب إسبانيا ، فجاءت قصائده مليئة بالصور الرقيقة للحب العذرى الذى نقله العرب – طوال قرون من تواجدهم فى إسبانيا – إلى الآداب الأوروبية فى العصور الوسطى . وقد أصبحت قصائده نبراساً للحب الرومانسى بما تحمله من عواطف وجدانية صادقة وخيال رقيق ، وهو الشاعر الذى قال عنه نزار قبانى إنه « لؤلؤة نادرة فى خزانة الشعر الإسبانى » .

المترجم فى سطور

ماهر حسن البطوطى

عمل ممثلاً ثقافيًا لمصر فى مدريد ما بين ١٩٦٩ و ١٩٧٤ ، ثم انتقل بعد ذلك للعمل مترجمًا محرراً بالأمم المتحدة فى نيويورك حيث يقيم الآن . وقد صدرت له ترجمات عديدة منها ديوان : « شاعر فى نيويورك » للوركا ، وكتاب : « الفن الروائى » لديفيد لودج ، وقد نشرا ضمن المشروع القومى للترجمة ، وقد نشرت له أيضًا ترجمات لجيمس جويس ، وإرنست همنجواى ، وميجل أنخل أستورياس، وبابلو نيرودا ، وقد حصلت روايته « عزلة النسر » على الجائزة الثانية للرواية العربية من المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٧ .

وقد حازت ترجمة هذا الديوان « أشعار » على جائزة سرفانتس - نجيب محفوظ للترجمة من الإسبانية إلى العربية فى دورتها الأولى عام ٢٠٠٢ م .

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنــى: حســن كامـــل



أشعار

جوستافو أدولفو بكر

كان اهتمام الشاعر بفنه، وشعوره بقيمة هذا الفن، يشكلان جانبًا مهما من جوانب إبداعه الشعرى؛ فقد آمن بكر بميوز ربة الشعر وبأبولون إله الفن. كان يتعلق بأستارهما كلما عصفت به حياة العاصمة التافهة القاسية التىلا تأبه بالشعراء ذوى الأحاسيس المرهفة ولا ترحمهم. عرف بكر حياة الفقر والجوع، ولم يكن امامه من ملجأ أو متنفس سوى الكتابة، والهرب من ابتذال الحياة إلى عالم الشعر الطموح المفعم بالأمال، ذلك العالم الروحى الجميل، نتاج الأحاسيس الدفاقة، وهو يشعر بنفسه فى ذلك العالم سيدًا وملكًا متوجًا.

